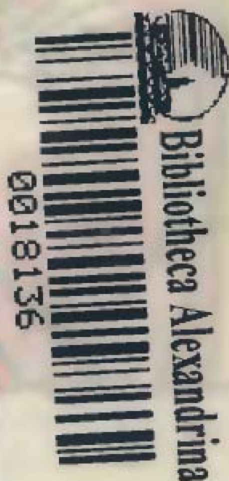
ألف ليلة وليلة

حسن جوهر
محمد أحمد برانق

أمين أحمد العطار

١٣



ألف ليلة وليلة

الجزء الثالث عشر

على بابا

كتبه

حسن جوهر
محمد أحمد برانق

أمين أحمد العطار

الطبعة الثانية



دار المعارف

رسوم: الفنانة النمساوية ستيلا يونكرز

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

الجزء الثالث عشر

صفحة



علی بابا

كان أخوان : أحدهُما اسمهُ قاسم ، والآخرُ اسمهُ علي بابا ؛ وكانا يسْكنان في بلَد من بلاد فارس ؛ رزقَ اللهُ والدهما مالاً قليلاً ، قسَّمه بين ولديْه بالتَّساوي قبلَ موته .

وتزَوَّج قاسمٌ امرأةً غنيةً ، واسعةَ الغنى ؛ فاتَّجر في مالها ؛ وسهَّل اللهُ له ، ويسر عليه ، فأصْبحَ تاجرًا كبيرًا .

أما علي بَابَا فقد تزَوَّج امرأةً ليستْ صاحبةَ مال ، وعاشَ عيشة ضَنْكًا ؛ فكانَ يذهبُ كلَّ يوم إلى غابة قريبة ، ويحملُ من حَطَبها على ثلاثة حمير يملكُها ، ويبيعُ الحطبَ في السوق مقابلَ دُرَيهمَات يشتري بها ما يُقيمُ أوَدهُ وأوَدَ زَوْجته .

وفي يوم من الأيَّام كانَ علي بابا في الغَابة يَحْتطبُ ، وحين

أوشك أن يحملَ ما جمَعه من حَطَب على حَميره رأى على بُعد غبارًا عَلا وانتشرَ وملأَ السَّماءَ ، يتقدَّمُ نحوَه . فأنْعَم النَّظرَ فيه فتَبَيَّن كوْكَبَةً من الفُرسان قادمةً على عَجَل ، فظنَّ أنهم مَنْسر من اللصوص وقطَّاع الطرق . فتملَّكه الخوفُ ، واستولى عَليْه الجزَعُ : فساقَ الحميرَ الثلاثةَ إلى أجَمَة كثيفة ، وأخفَاها بينَ أشجارها الكثيرة الملْتَفَّة . أمَّا هُوَ فإنَّه صَعد فوق شجرةٍ كبيرة نابتة على صخْرة عالية . واختبأ بينَ أغصَانها المُلتَفَّة بحيثُ يرَى هُو النَّاسَ ولا يراهُ أحد .

ولمَّا اقتربَ الفُرسانُ منه عَدهم فوجَدهُمْ أربعين فارسًا وكانُوا جميعًا شاكى السلاح .

ومَا إنْ وصلُوا إلى الصَّخْرَة التى كانتْ الشجرةُ تَنْبُتُ عليْها حتى نزلُوا عن خيُولِهم ، وترَجَّلُوا . وأرْخَى كل منهم لحصَانه اللجام . ورَبَطَهُ فى فَرْع إحْدى الأشجَار ، ثم أخْرجَ لهُ بعضَ الشَّعير من كيس مصْنوع من جلد يحملُهُ معَه ، ووضَعَهُ أمامَه ، ثمَّ حمَل كل منهم خُرجًا ثقيلاً ظنَّ على بابا أنه مملُوءٌ بالذهب والفضَّة والأحجار الكَريمة . وتقدم رئيسُهم نحو الصَّخْرة حتَّى كانَ بينه وبَينَها قيدَ متر ثم صاح :

افتَح يا سمْسمْ ! !

ومَا إن أتمَّ رئيسُ العصابة « افْتَحْ ياسمْسم » حتى سمع على بابا قَعْقَعةً وصريرًا ، أعقَبهُما انفتاح باب فى الصَّخرة ، فأشار

الرئيسُ إلى أتْباعه بالدخُول ؛ فدخَلُوا جميعًا ، ودخَلَ الرئيس آخرهم .

وبَعْدَ أن دخَل انْقَفَل البابُ من تلْقاء نَفْسه .

وظلَّ اللصوصُ مدةً من الزَّمن داخلَ المغَارَة ، ولم يُغَادرْ على بابا مكانَه من الشَّجرة خوفًا من خُروج اللصُوص بَغْتَةً ؛ فيَعْثرون عَلَيْه ويُنكّلُون به .

وبعدَ مدة نحو ساعة — مرتْ بعلى بابا كأنها يومٌ من شدة خَوفه أنْ يُفضَح أمرُه فيكونَ من الهالكين — سمع على بابا القَعْقَعَةَ والصريرَ مرةً أخرى ، فانْفتَحَ البابُ ، وخرجَ الرئيسُ أولاً ، ووقَفَ بجوار البَاب ، ومَرَّ أمامَهُ أتباعُه واحداً واحداً . ولم يكُنْ مَعَهُم إلا الأخْرَاجُ فارغَةً ، ففهم أنهم أفْرَغُوا ما فيها داخلَ الكَهْف ؛ وبَعْدَ أنْ خرجُوا جميعًا سمعَ على بابا الرئيسَ يَصيحُ :

اقْفل يا سمْسم ! !

فأطَاعَ البابُ وانْقَفَل محدثًا الصَّوْتَ الذى أحدثَهُ انفتاحُه .

أسرَعَ الفرسانُ إلى خُيولهم ، وفكوا رباطها . وامتَطَى كلُّ لص فرسَه ، وأمْسَكَ بلجَامه ؛ ولما رأى الرئيسُ أنهمُ جميعًا لديه مستْعدونَ سارَ فى مُقدمتهم على الدَّرْب الذى جاءُوا منه ؛ فتبعَهم على بابا بعَيْنيْه حتَّى غابوا عنْه . ولبثَ قليلاً ثم هبط إلى الأرْض .

وكانتْ كلماتُ رئيس العصابَة لا تزَال ترنُّ فى أذنَيه . وتحوْيها

ذاكرتُهُ القَويّةُ ؛ فدفَعَهُ الفُضُولُ إلى أنْ يجربهَا ، فتقدمَ إلى الصَّخْرة ، ووقَفَ حيثُ وقَفَ الرئيسُ ، وصَاحَ بأعْلى صوته :

افْتَح يا سمسم . . !

فما إن قالهَا حتّى انفَتَح البابُ على مصْرَاعَيه ، فانتاب على بابا شُعورٌ من الدهشَة والسرور جميعًا ، وتَقَدَم نحوَ الباب ، وأطلّ برأسه ، فأدهَشَهُ أنهُ يرى الكهْفَ مُضيئًا ، وقد كانَ يخالُه مُظلمًا كئيبًا مُوحشًا .

وأوْغَلَ فى داخل الكهْف ، وسارَ على حذر ، ثم نظرَ فإذا الضّوء يأتيه من فَتْحة فى أعلى الكهف . وعَلى هَذا الضَّوء سارَ على بابا فرأى عجبًا : رأى فى جوف الكَهْف صُنوفًا من الطعام ، وأكداسًا من البُسُط والخز والديباج وأكوامًا من الذهب والياقُوت والزَّبرْجَد ، وأكياسًا مملوءةً بالنقود المسْكُوكة فى عُصُور مختلفة ؛ وإن مَنْظر هذه الثروَات الهائلة جَعَل على بابا يظُنّ أن الكهْفَ كان ملْجأ لأجيال من العصَابات تلا بعضُها بعضًا .

دخَلَ نفس على بابا شىءٌ من الأنس ، وهدأتْ بعضَ الهدوء ؛ فدخَلَ غيرَ هياب ولا وَجل ، وجمعَ من الذهب والأحجار الكريمة مقدار حمل حميره الثلاثة التى كان يَحْتطب عَلَيْها ، وعبأ ذلك فى أكياس وحَمَّلها الحمُرَ ووَضَعَ فوق الذهب بعضَ الحطب ذرًّا للرّماد فى أعيُن النَّاس .

ولما فَرَغَ مما أراد أن يعمَلَه وقفَ أمامَ البابَ وصاح بالجملة التى سمعَها من رئيس العصابة ! !

اقفل يا سمسم

فما إنْ قالها حتى انْقفَلَ البابُ .

ورَجعَ على بابا إلى المدينة خائفًا يترقَّبُ ، ولما وَصَلَ إلى باب داره أدخَلَ الحمير إلى ساحة الدار ، وأقفَلَ الباب إقفالاً محْكمًا ، ثم رَمَى الحطب، وحَمَلَ الأكياسَ إلى داخل الدار ، وَصَفَّها صَفًّا أمامَ زَوْجته ، ثمَّ أفرَغَ ما فيها فتكدسَ الذهَبُ ، وأخذَ بَريقه ببَصَرها ففَغَرَتْ فَاهَا ، واستوْضَحَتْهُ خبرَ هذا المال الكثير ، فقَصَّ عليْها القصَّةَ من أوَّلها إلى آخرها ، وأوْصَاهَا بكتمان السر .

سرَّتْ الزَّوَجةُ بما آتاهمُ اللهُ من نعمة جَزيلة لم تكُنْ فى حُسْبانهم ، وأخذتْ تَعُد قطع الذهب ولكنَّ العَدَّ أتْعبها .

فقالَ لها على بابا :

إنك – يا زَوْجتى العزيزة – لا تَسْتَطعينَ عَده فى وقت قصير ، وسيَطولُ بك الزَّمنُ ! فَلْنَخبئهُ فى الأرض ، فليس لدينا وقت نضيعه.

فقالَتْ الزَّوجَة :

إنَّكَ عَلى حَق – يا زَوْجى العَزيز – ولكنْ منَ الحكمة أن نَعرفَ مقدارَهُ ولوْ على وجْه التَّقريب ، وإنى ذاهبةٌ إلى بيت أخيكَ قاسم ، لأسألَ زوجَتَهُ أن تُقْرضنى مكْيالها لنكيل به هذه النقودَ

ثم نَعُدَّ مقدارَ مكيال واحد ، وبذلكَ يسهُلُ علَيْنا معْرفَة عددها .

وأسرَعت الزَّوجَةُ إلى بيت قاسم ، وكانَ قريبًا من بيْتهمْ ؛ ولمَّا دخلَتْ بيتَ قاسم وخَفَّتْ إليها زوجَتُه قالت لها :

أريدُ أن تُعطِيني مكيالك عَلى أنْ أرده إليك بعدَ قليل .

فسألتها امرأةُ قاسم :

أتريدين مكيالاً كبيرًا ، أمْ صَغيراً ؟

فقالت لها : يكفيني مكيالٌ صغيرٌ .

فذهبَتْ لإحضَاره ، ولكنَّها تعلمُ أنَّ على بابا رجلٌ فقيرٌ ، وأنَّهُ ليسَ عنده ما يُوزَن ، ولا ما يُكال ، فلِمَ تَطْلُبُ المكيال؟ وَوَسوَسَ لها الشَّيطان أنْ تتجسَّسَ عليْهم ، ففكَّرت في حيلة تعرف بها ما يكْتالُون . فوضَعَتْ في قرار المكْيَال قطعةً من مادة لزجة ، ثم ناوَلتْها إيَّاهُ .

ذهبتْ زوْجَةُ على بابا إلى دارها ، واكتالت الذهَبَ ، وعرفَتْ واطمأنتْ هي وزَوْجُها إلىَ مقداره ، ثم أخْفَتْهُ هي وزوجُها في مكان ، وأرْجَعَت المكيالَ إلى صَاحبته من غير أن تنْظُرَ إلى داخله .

وكانتْ قطعةٌ من الذهب قد التَصَقَتْ بقرار المكيال من أثر المادة اللزجة .

وما إنْ عادتْ زوجَة على بابا منْ دار أخي زوْجها بعدَ أنْ



وحمل على بابا الأكياس إلى داخل الدار وصفها أمام زوجته

شكَرَتْ سلفتها ، حتّى بادرَت السلفَةُ إلى النّظر داخلَ المكيال ، فهالها أن ترى قطعة الذهب مُلتصقَة بقراره ! فامتلا قلبُها غلاً وحَسداً وصَاحَتْ : أعند على بابا ذهبٌ يَكيلُه كيْلاً ؟ ! فمن أين لهُ هَذا ؟

وكان قاسمٌ فى محل تجارته . فلمَّا عَادَ فى المساء قالتْ لهُ زوجَتُه : يا قاسم ! أظنكَ تعُد نفسك غنيًّا . . ؟ ! فلْتعلْم أنَّ على بابا أخاك أكثر منكَ مالاً . إنَّهُ لا يَعُدّ ماله ، ولكنَّه يكيلُه كَيْلاً . . !

وكانَ قاسمٌ يظُن أوّلَ الأمر أنّ زوجَتَهُ تمزَحُ ! ولكنّ نظرةً إلى وَجْهها أقْنعَتْهُ أنّ الأمرَ جدٌّ لا هزل فيه . فقال لها :

إنّ ما تَقُولينهُ لُغزٌ يحتاجُ إلى حَل .

فقَصّتْ عليْه حيلتَها التى أوْصلتها إلى مَعْرفة ما يكْتالُ أخُوه وزوجه ، ثم قَدمتْ إليْه قطعةَ الذهب . التى فَحَصَها ، وفحصَ النقوش التى عليْها ، فوجَدها قديمةً لا يعْرف فى أى عهد ضربت !

وكانَ قاسمٌ بعدَ أن تَزوّجَ زوْجَته الغَنيَّةَ يرغبُ عن زيارة أخيه أو لقائه ، وأهملَ شأنه ، وتَنَكَّرَ له ، وقَطَعَ وشائجَ القُربَى وصلات النسب التى توجب على الأخ الغنى أن يبرّ أخاهُ الفقير .

أمَّا الآنَ فقدْ عَلمَ بالخير الذى ساقَه الله إلى أخيه الذى كانَ فقيرًا مُعْدمًا ، ولم يمد لهُ يدَ المساعَدة فى حَال فقره ؛ ولمْ يسرّهُ الخيرُ ، بل على النّقيض كادَ يتميزُ من الغَيْظ . وملأ الحسدُ صدره ؛

فظلَّ ساهداً مُؤرَّقًا طولَ ليلـه من الهم الذى ركبه ، وما إنْ طلَعت الشَّمس حتى ذهَبَ إلى أخيه فى داره ، ولمَّا رآهُ سَلَّم عَليْه ، وقالَ لهُ :

إنَّنى مندهـش من تصرُّفكَ ! ! تدعى أنكَ فقيرٌ معدم على حينَ أنَّكَ تكيلُ الذهبَ كيلاً . . . ! ! ثم مَدَّ إليه يده بقطعة النقود الذهبية قائلاً : إنَّ زَوجَتى قد وَجَدَتْ هذه القطعة فى قرار المكيال التى استَعَارَتْهُ منَّا زوجَتُكَ .

وكان على بابا يودُّ من صَميم قلبه أن يُبْقِيَ خبرَ زيارته الكَهفَ سرًّا ، ولكنَّهُ تبيَّن من حديث أخيه أنَّ السر قد كشفَ ، ولا فائدة من ستره وكتمانه ؛ فقَصَّ على أخيه قصَّةَ الكنْز ، ثم عَرَضَ عليه بعْضَ المال ليكتم السر ! !

فقالَ قاسم وهُو يُخاطبه :

لا بُدَّ لى من مَعْرفة مكان الكنْز ، وطريق الوُصُول إليْه ، لأذهَبَ إليْه أنى شئتُ ؛ وإنْ لم تُخبرْنى بما أريدُ بلَّغتُ عنك ، وحينئذ سَوفَ لا تَستطيعُ أن تزُورَ الكَهفَ لتطلُبَ مزيداً ، بل سَوفَ يُؤخَذ منكَ مالُك غَصبًا ، وآخذُ منهُ جزَاء تبليغى عنكَ عُشرَه ، وعُشْرُ الكنز يكفينى ؛ وتعودُ أنتَ إلى حرمَانكَ وفقرك ، وقَدْ لا تَسلَمُ من يد الحاكم لأنَّكَ لم تُبلغْ عن الكنز .

فأخبَره على بابا بتفاصيل القصَّة وكلمة السر .

سرَّ قاسم . وباتَ ليلتهَ يحلم بالغنى والثَّراء الذى ينتَظرهُ ، ولما طَلَعَتِ الشَّمسُ فى اليوْم التَّالى سَارَ نحو الغَابة ومعَهُ عشرةُ بغال ، وعليْها صَناديقُ فارغة أعدها ليملأها ذهبًا وفضَّة ، ومما يجده فى الكنْز منْ لآلئ ومرجَان وزُمُرُّد وياقُوت .

واتَّبعَ الدربَ الذى وصفَهُ لهُ أخُوه على بابا حتَّى وصَلَ إلى الشَّجرة ؛ واهْتَدى إلى الصَّخْرة بالعَلامات التى أخبرْهُ بها أخُوه .

ولما صَار قابَ قوْسَيْن أوْ أدنى من باب الكَهْف صَاح بالجمُلَة المعْرُوفَة :

افتح ياسمسم .

فانفتح البابُ فى الحال ؛ ولما دخَل انْقَفَل البابُ ورَاءهُ ؛ ولما ألْقَى بنظره ذاتَ اليمين وذاتَ الشَّمال وفَحَصَ عن محتَويات الكَهْف — هالهُ كثرةُ ما وَجدهُ من ذهب ودر ؛ وَجَدَ أكثرَ ممَّا كان يؤَمِلُ أن يجد فاختَار منْ هَذا المال ما راقَ لَهُ ؛ وكدسَ منه ما تَستَطيعُ بغاله العشرةُ أن تحمله .

ولكنْ يا للهول ! ! لَقَدْ أنستْه فَرْحتُه بالمال الوفير أن يذكرَ كلمةَ السر التى لا يَنْفتح البابُ إلاَّ بها . . . ! !

إنَّه يذكرُ أنهُ اسم حَبٍّ !

أهى شعير ؟ !

فصَاحَ : افتحْ يا شَعير .



ودهش قاسم لما رأى فى الكهف من الذهب والدر

إنَّ البابَ لم ينْفتح ولم يتَحرَّك . . . !

فاشْتَدَّ خوفُه ورُعْبُه . وزَادَ قَلَقُه .

أهي قمح ؟!

فصَاحَ : افتَح يا قمْح !

إنَّ البابَ لم ينفتح ولم يتَحرَّكْ . . . ! !

فجُنَّ جنُونُه . وطارَ عقْلُه . وزَاغَ بَصرُه .

وأخذَ يهذى بأسماء الحُبُوب المختلفة . . . ! ! ذكرَ كثيراً منْها ولكنَّ حظَّهُ العاثر أنساهُ أنْ يَذكُرَ سمسم . ! !

وكُلَّما طَالَ به الزَّمَنُ داخل الكَهْف . زَاد ارتباكه . . !

ولم يَعُد يُفكر فى الغنى والثَّراء . ولكنَّه بدأ يفكر فى الحياة . . ! بَدأ يُفكر فى الخلاص ! !

ندمَ على حَسَده لأخيه . نَدم لأنَّهُ لم يَرضَ بما قَسَمهُ اللهُ لهُ وقَدْ كانَ يُعَد من الأثرياء .

نَدمَ على رَفضه المالَ الذى قدَّمه لهُ أخُوه .

ولاتَ سَاعَة مَنْدم ! !

أخذَ يصيحُ ، ويهْذى بكلمات بعضُها مفْهوم وبعضُها غيرُ مفهوم ، وشرَعَ يُبَعْثرُ المالَ الذى جمَعَهُ وأعده بجوار البَاب ، ثم بَدأ يرُوحُ داخلَ الكَهف ويجيءُ كالضَّبع المحبُوس فى قَفَص من حَديد .

لم يَكنْ يخطُر بباله أنّه قد يَنْسى كلمة السر .

ظلّ في حالة تَعسَة حتّى الظهر ، وفجأةً سمعَ غناءً يقتربُ مصدرُه ، ولم يَلْبث أنْ سمعَ صهيلَ خيل . وصياحَ رجال ، فأيقَن أنّ اللصُوصَ قد حَضَرُوا .

وسمع صوتًا عاليًا يقول :

افتح يا سمْسم !

وعند ذلكَ فقط عَرَفَ أنّ كلمةَ السر هى : سمْسم !

ودخَلَ اللصوص شاهرين سيوفهم ، لأنهم حينَ رأوْا بغالَ قاسم العَشرةَ خامَرَهُم الشّكُّ فى أنّ أحداً قد عَرفَ سرّهم ، ودخل كهْفَهُم .

اختَبأ قاسمٌ وراءَ عدْلٍ من الأعْدال ، ولكنْ سرعان ما كَشَفَ اللصوصُ مخبأَه ، وجرُّوه على وَجْهه !

أخذَ يستَعْطفُهم ، ويطْلُبُ رحْمتَهم ! فلم تلنْ قلوبهُم القاسية ، وظَنّ فى أثناء ذلك أنهُ وجدَ فرصتَهُ ، فالبابُ أمامَه مفْتوح . . .

فَهلْ يندفعُ نَحوه ؟

إن الرئيسَ واقفٌ بالباب .

وفى الاستسلام موتٌ محَقّق ، وفى محاولَة الهرب أملٌ فى النّجاة ولو كانَ ضَعيفًا . . .

فاندفعَ اندفاعَ العاصفة . فوقَع رئيسُ اللصُوص من قُوَّة الصَّدمة .

ولكنَّ أحد اللصُوص عاجلَه بضربْة سَيْف قطعَتْ رأسَه .

وكان هَمُّ اللصُوص أن يتَفَقدُوا أموالهم ، فوجدوا ما كدسه قاسمٌ على مَقْرَبة من الباب فَحملُوا الأكْياسَ إلى أماكنها ، ولكثَرة ما فى الكَهْف لم يَفْطنوا إلى ما أخذهُ قبلَ ذلكَ على بابا .

وتشاوَرَ اللصوصُ فى أمر قاسم ومعْرفته سرهُم !

فقالَ قائلٌ منهم :

إنَّ وجود إنسان فى كهف لدليلٌ قاطعٌ على أنَّه عرفَ سرَّنا ، وقدْ يكونُ معَهُ شركاء ، فخيرٌ ما نَفْعل أن نُقطعَ جسمه قطعًا أربعةً نعلَقها على يمين الداخل وعلَى شماله ، فتُشيرُ منْ طرف خفى إلى مصير مَنْ يجرُؤُ علَى اقتحام مَعْقلنا ، فيخافُ عَلَى نَفْسه وَيفرُّ هاربًا !

فوافقَهُ زُملاؤه على رأيه ، وقَطَّعُوا جُثَّةَ قاسم أربعةَ أقسام، وعلَّقُوها فى مدخَل الكَهْف .

ولما فرَغُوا من إعادة الأكْياس التى ملأها قاسمٌ بالجواهر إلى أماكنها من الكنز غادروا مَعْقلهم ومخزنَ كُنُوزهم ، وامتَطوا خيُولهمْ ، وساروا ليَسْتَأنفُوا عَملهم ، فيَسْلُبْوا ويَنْهبوا السَّيارات والقَوَافل التى يجدُونها فى غير حرَس شديد !

ولم يعُد قاسمٌ فى الموْعد الذى قدرَه ، وطَال تأخرهُ ، فساوَر زَوْجَتَه القَلقُ ، وانتابَتْها الوَسَاوس ؛ ولما أقبَلَ الليلُ ولم يَعُد طارَتْ إلى أخيه على بابا ، وقالتْ له :

اعلم يا على أنَّ أخاك استَيْقظَ مبكراً هذا الصَّباح ، وأخذَ معَه عشْرةَ بغال ، وذهَب إلى الغَابة التى بها الكَهفُ ، وأنتَ تعلَم ماذا يقصْد من ذهابه !

والآنَ قد أقبلَ الليلُ ولم يَعد ، وإنى خائفة وَجلةَ ، وقلْبى يحدثنى بأنَّ مكرُوهًا حلَّ به .

فقالَ لها على بابا مُطمئنًا لها :

لا تَخَافى ، فإن قاسمًا سيعود فى الظَّلام ؛ لأنَّهُ ليسَ من الحكمة فى شىء أن يعود بالذهب فى وضح النَّهار !

ولقد كانَ تفسيرُ على بابا لتأخر قاسم مُقنعًا لزَوْجَته ، لأنها كانتْ تعلمُ حرصَهُ الشديدُ على تكتم الأمر . فرجَعَتْ إلى بيتها وتذرَّعتْ بالصَّبر حتى مُنتَصَف الليل ! ولمَّا لمْ يأت زوجُها عاوَدها الخوفُ مُضَاعَفًا وتجدد إشفاقُها علَيْه ، واشْتَدَّ حزنها ، ولا سيما أنها كانتْ مضْطرةً إلى كتمان السر .

وبدأتْ تلُوم نفسَها على حبُها للاستطلاع ، ومحاوَلتها كشف أسرار النَّاس ، ولَعنت السَّاعة التى وسوسَ لها الشيطانُ فيها بفكرتها الخبيثة التى كانتْ سببًا فى هلاك زوْجها ، وظلَّتْ ساهدةً طوالَ الليل فى

جَزَع وقَلَق . وكلما أوشك الليلُ أن يَنْتَهى ازدادَ جزعها وقلقُها ، وألحَّ عليها الاضْطرابُ حتَّى أخذت تبكى وتنْتَحبُ وتندبُ حظَّها العاثر ، وتصرُّفها السيء ، وقبحَ تَتَبعها لأسرار النَّاس .

وما إنْ انتهى الليلُ وطلَعَ النهارُ — حتى سارَعت إلى على بابا ، ولمَّا رآهَا على بابا وزوجَتُه عَرفا خَبرَ الكارثة من دمُوعها ، وشدة لهفَتها واضْطرابها .

ولم يَنتَظر على بابا حتَّى تسأله زوجةُ قاسم أن يذهبَ للبحث عنْ أخيه . ولكنَّهُ أخذَ حميره الثلاثةَ ، وغادرَ داره بعد أنْ هدَّأ من رَوْع زَوْجَة أخيه ، ونصَحَها بالصَّبر والسلوان حتى يعودَ بالخبر اليَقين .

سارَ على بابا نحوَ الغابة . ولما وَصَلَ إلى الصَّخرةَ لم يجد أخاهُ ولا بغالَه ، ولما اقْتَرَبَ من الباب وجَدَ آثار دماء ، فانزَعجَ انزعاجًا شديداً ، وأيقن بحلُول الكارثة . لأنه تشاءمَ من وُجود الدم ، واعتبَره فألاً غيرَ حَسن !

ولما تلا الجملة المعروفة .

افتح ياسمسم ! !

انْفَتحَ باب الكهف فوجَدَ جثَّة أخيه مُقَطَّعةَ الأوصال ومُعَلَّقةً على جانبي الباب . ففَزع لهذا وجَزع واسْتَولى علَيْه رعْبٌ شديد .

ولم يَطل به التفكيرُ فيما يَنبْغى عليه أنْ يفْعل بجثَّة أخيه القَتيل!

أنزَلَ أجزاء الجثَّة . وجمَعَها فى كيس . ووَضَعها على حمَار ،

ووَضَعَ على الكيس بعْضَ الحطَب ، أمَّا الحماران الآخران فإنَّهُ حملَّهمُا أكياسًا من الذهب والأحجار الكريمة ، وغطَّى الأكياسَ أيضًا بحزَم من الحطب ، ثم صَاح :

اقفل ياسمسم .

فانْقفَل البابُ ، وأسرَعَ هو فى مُغادرَة المكان ، حتَّى إذا وَصَل إلى أطْراف الغَابة تريَّثَ حتَّى غربَتْ الشَّمسَ ، وجَنَّ الليلُ ؛وعندَ ذلك سارَ إلى بيْته ، وأدخَل الحمارين اللذين يحملان الذهب إلى داره ، وترَكَ أمرَ إخْفاء الذهب إلى زَوْجَته ، ثم قاد الحمار الثالثَ الذى يحمل جثَّةَ أخيه إلى بيت أخيه .

ولمَّا طرَقَ البابَ فتحتْ لهُ جارية أخيه مُرجَانَةُ ، وكانتْ معروفَةً بالذكاء والحكمة وحُسن التصرُّف والتَّغلب على الصعاب .

ولما دخلَ الحمارُ إلى ساحة الدار أنزَلَ على بابا الجثَّةَ ، ثم انتحى بمرجانة ناحيةً وقالَ لها :

يَنْبَغى علَيْك أن تكتمى سرَّ موْت سَيدك ، فإنه إذا عُرفَ سببُ موته فقَدْ يصيبنا جميعًا مكرْوهٌ عظيم ، ويلحقنا شرٌّ مستطير وهذه جُثَّةُ سيدك ، فينْبَغى أنْ يدفن كمَا لَوْ أنَّهُ مات ميتةً طبيعيَّة ، لا تُثيرُ قيلاً وقالاً ! ! اذهبى وأخبرى سيدتَك ؛ وإنى أتركُ الأمر لمهارتك وفطنتك وحُسن تصرُّفك .

استطاعت مرجانةُ أن تؤثر علَى سيدتها ، وتجعلها تصبرُ على

مصيبتها . وتقدمتْ هي ومرْجانةُ تُساعدان على بابا في حمْل الجثّة إلى غُرفة قاسم . ثم سارَ على بابا بحماره إلى داره .

وفكّرتْ مرجانةُ في أثناءَ الليل ودبرت ، وانتوتْ أمورًا . ولما أصبحَ الصّبحُ غادرتْ الدار . وذهبتْ إلى بائع عقاقير مشهور . وطلبتْ منهُ دواءً غالى الثمن لا يشترى إلاّ للحالات الخطيرة . وتلمّستَ الأسبابَ لتذكر خُطورة مرَض سيدها !

ولما سألها صاحبُ الحانوت عنهُ قالت إنه لا يستطيعُ الكلامَ ، وإنه قد انقطَع عن الطّعامَ ، وامتنَعَ عن الشّراب .

وفي المساء ذهبتْ إلى البائع مرّةً أخرى باكيةً . وطلبتْ عُقارًا لا يعطى إلاّ للمرضى الذين في النّزْع الأخير . ولما أعطاها الدواء قالتْ كأنما تحدثُ نفسَها : واأسَفَاهُ ! ! إني أخافَ أنْ يكونَ هذا الدواءُ مثلَ غيره لا نفْعَ فيه ويبْدو لى أنى سأفقد سيدى العزيز .

كذلك شاهد النّاسُ على بابا وزَوْجَتُه يُكثران من الذهاب إلى بيت قاسم أخيه . ويظهرُ على وَجْهيهما أثرٌ واضحٌ للكآبة والهم ، ولذلك لم يَستعجبْ أحدٌ حينَ سمعَ الناسُ أصواتَ أهل بيت قاسم ينتحبُون ويُوَلْوِلون معْلنين للنّاس خبرَ وَفاته !

وفي فجر اليوم التّالى ذهبَتْ مرجانةَ إلى إسْكافى ، وحيّتهُ تحيّةَ الصّباح ، ثم اقتربتْ منه ووَضَعتْ في يده دينارًا من الذهب ، وقالتْ له :

يا بابا مصطفى ! أرجوكَ أن تأتى معى ومعك أدواتُ عملك ، ولكنى أشترطُ عليك : أنَّنى أغمى عينيكَ ، وأضعُ عليهما ما يحول بينك وبينَ الرؤية عند ما نصلُ إلى مكان كذا . . .

فتردَّدَ بابا مصطفى عندَ سماعه هذا الشرط ، وقالَ لها :

أتريدينَ منى أن أعمل ما يخالفُ الضميرَ أو الشرفَ ؟ !

فقالتْ مرجانه :

معاذَ الله ! ما كنتُ لأطلُبَ منكَ شيئًا لا يستريحُ له ضميرُك ، أو يخدشُ شرفك ! ثم وضعتْ فى يده دينارًا ثانيًا ، وقالت :

اعتمد على الله ، وتعالَ معى ، ولا تخشَ شيئًا !

فنهض بابا مصطفى الإسكافى ، وأخذَ معهُ عُدته ، وسارَ معَ مرجانة ؛ ولما وصلا إلى المكان المتفق عليه ، وضعتْ على عينيه منديلاً أحكمتْ رباطهُ ، وقادته إلى بيت سيدها ، ولم تفكَّ المنديل الذى عصبتْ به عينيه حتى دخل الغرفةَ التى بها الجثة ، ثم قالتْ لهُ :

أسرع يا بابا مصطفى ، وصل أجزاءَ هذه الجثة بعضها ببعض وعند ما تفعل ذلك لكَ منى دينارٌ ثالث .

أقبلَ بابا مصطفى على جثة قاسم ، وجمعَ أجزاءها الأربعة ، ووصل بينَ بعضها وبعض ، وخاطها خياطةً محكمة .

ولمَّا انتهى من عمله ، وضعتْ على عينيه المنديل ، وعصبتهما

مرَّةً أخرى وأعطته الدينار الثالث كما وعدته ، وبعد أن أوصته بكتمان السر قادته إلى حيث رفع المنديل عن عينيه ، وتركته يذهب إلى حال سبيله ، وراقبته لتتأكد من أنه انصرف إلى حانوته .

وفى صباح اليوم التالى جاء الجيران إلى بيت قاسم ، وحملة أربعة منهم إلى المقبرة ، يتبعهم قارئ يرتل بعض آيات من القرآن الكريم ، ومن خلفهم على بابا وبقية المشيعين ؛ وتبعت الجميع مرجانة ، وكانت تلطم خديها ، وتضرب على صدرها ، وتندب حظها وحظ سيدتها العاثر ! !

أما زوجة الميت فإنها بقيت فى البيت تولول وتصرخ ، ومن حولها أقرباؤها وجيرانها اللائى جئن لعزائها ، ولكنهن كن يهيجن حزنها كلما ذكرن محاسن الراحل الحبيب .

ولم يعرف أحد من أهل البلد الطريقة التى مات بها قاسم ، وبعد انقضاء العزاء ببضعة أيام انتقل على بابا وزوجه إلى بيت أخيه ليعيشا فيه ، وكان ينقل أثاث بيته — وكان قليلاً — بالنهار ؛ أما المال فلم ينقله إلا فى ظلام الليل .

وكان لعلى بابا ولد فعهد إليه بتجارة عمه يتعهدها ، ويقوم عليها ، ويستثمرها .

وبينما كان هذا يجرى كان اللصوص فى هم ناصب ، وقلق

شديد ، لأنهم حينَ رجَعوا إلى كَهفهم هالهم أنْ يجدُوا جُثّةَ قاسم — التى كانوا قد علّقُوها على بابه من الداخل — قد اختَفَت ، كما اختَفى معَها عددٌ من أكياس الذهب التى كانَ قاسمٌ قد أعدهَا ليحملَها فوقَ بغاله العشر .

عقَد اللصوصُ مؤتمرًا يتَشاورون فيه ، ويتَدارسُون أحوالهم ، فقالَ رئيسُهم :

لقد وَضَح أنَّ الذى عرَفَ سرنا لم يكنُ واحداً ونحنُ الآنَ مُهددون : لاَ بسلْب أموالنا فَحَسب ، ولكن بنهْب أرواحنا أيضًا ! ! فإذا ما أردنا أنْ نطمئنَّ على أموَالنا وأرْواحنا فلْنبحث عن هذه العُصْبَة التى اهتدت إلى كنْزنا ، وعلَيْنا أن نَقتُلهم جميعًا . فماذَا أنتمُ قائلون يا رفاق ؟ . .

وَافَق الجميعُ على اقتراح الرَّئيس .

فقالَ الرئيس :

حَسنًا ! فليْتَقَدمْ أجرؤكُم قلْبًا ، وأوْسعُكم حيلةً ، وأقدرُكم عَلى التَّخلص من المآزق ، وأمْهرُكُم سياسَةً ؛ وليذهَب إلى البَلَد مُتَخفيًا فى زىِّ عابر سَبيل غريب عن الديار ، وليتجسَّس ، فعَسَى أنْ يسمَع خبر الرَّجل الذى قَتَلناه ، وليَجتهدْ أن يعْرف منْ هو . . . وأينَ كان يَسْكن . . ؟ ثم استطردَ يقُول :

وإنَّ هذا الأمر بالغٌ أشدَّ الخُطُورَة يحتاجُ إلى يقَظة وتكتُّم ،

وإخلاص وأمانة . وعلينا أن نتعهد ونتعاهد على أن كل من يتصدى لهذا الأمر ، ويعود خائبًا لا يصل إلى نتيجة يكون نصيبه الموت ولو كان فشله ناتجًا عن خطأ في التقدير ، ولم يكن له يد فيه .

وقبل أن يعلق أحد على كلام الرئيس نهض أحدهم مسرعًا وقال :

إني راض بهذه الشروط ، وإني أعتقد أنه شرف كبير أن أعرض نفسي للموت فداء للجماعة .

فشكره الرئيس على صدق عزيمته ، وعلى شعوره الطيب ، وعلى روح التضحية والفداء ، وعلى إقدامه على عمل جليل خطير مقبل عليه وهو لا يدري : إما أن ينتهي بحياة ، وإما أن ينتهي بموت ! !

ووقع اختياره عليه . ووافقه بقية العصبة على هذا الاختيار .

استخفى اللص المختار في ثياب الصالحين الأبرار ، واستودع الله جماعة اللصوص . وسار نحو المدينة فوصل إليها في مطلع الفجر . وطفق يسير في الشوارع يتسقط الأخبار ، حتى ساقه القدر إلى دكان بابا مصطفى — وفي يده شاكوش وهو على وشك أن يبدأ عمله اليومي — فحياه اللص تحية الصباح ، ولما رآه طاعنًا في السن قال له :

أيها الرجل الشريف الصالح . إنك تبدأ عملك مبكرًا ، فهل



اللصوص يتشاورون ليعرفوا من كشف سرهم

فى استطاعة رجل هَرِم مثلك أنْ يبْصرَ فى هذا الضَّوء الضَّعيف ، والشمسُ لمَّا تشرق بَعد ؟ ! إنَّ أمثالك قدْ لايروْن فى وَضح النَّهار ، لأنَّ التَّقدم فى السن يُضعفُ البَصرَ كثيرًا ، فقال لهُ بابا مصطفى :

إنَّك لا تعرفُنى ، إنَّنى على الرَّغم من بُلوغى هذه السن حادُّ النَّظر دقيقه ، ولا أدلُّ عَلى ذلك أكثرُ من أنى خطتُ بالأمس أوصَالَ جُثّة ميت بعضُها ببَعْض فى مكان أكثر ظلمةً من هذا المكان .

فسألهُ اللص بلَهْفَة : أينَ كانَ ذلك . . . ؟

فأجابه بابا مصطفى :

لنْ أخبركَ بأكثر ممَّا عَلمت !

وأيقَن اللص أنَّه قدْ وجَد ضَالته ، فوَضَعَ يده فى جَيبه ، وأخرْجها بدينار ، وضَعَهُ فى يَد بابا مصطفى . وقالَ له : إنَّنى لاَ أريدُ أن أعْرف سرَّك ، ولكنْ ثق أنى أهلٌ للثّقَة وفى إمكانك أنْ تأتمنى عَلى سرك . وكُلُّ ما أريده منْك أن تدلنى على البَيْتِ الذى خطتَ فيه أوصالَ الميت ! !

فقالَ له بابا مصطفى :

لو أنَّنى رَغبتُ فى ذلك لما استْطَعتُ أنْ أدلكَ عَليْه . فإنَّنى أُرشدتُ إليْه وعَيْناى مَعْصُوبتان . ولمَّا قمتُ بالمهمة ، رجعتُ كما ذهبتُ معصوبَ العيْنين ! ! فأنْتَ ترى أنَّهُ من المستحيل إجابَتُك إلى ما تُريد ! ! وليْس ذلك تحفظًا منك . ولكنْ جهلاً منى بالبيت

وبالطريق .

فقالَ اللص :

من يدري . . ؟ ! فلعلكَ قادرٌ على تذكر الطريق إذا عَصَبْنا عَيْنيكَ فى المكان الذى عُصبتا فيهِ فتدلّنى على البيت المذكور ! وحيثُ إنَّ كُلَّ واحد يجبُ أن يُؤجَرَ عَلى ما يقُوم بـه من عَمَل فهاكَ دينارًا ثانيًا ، ووضَع الدينارَ فى يَده !

ونظرَ بابا مصطفى إلى الدينارَين ، وفكّرَ فى نَفْعهما له ، وفى حاجته إليهما ، فرجَحت كفتُهما كفة فَضيلة حفْظ العَهد ، فوضَعَهُما فى كيس نقوده ثم قال : لستُ متأكداً من أنّنى أستطيعُ أنْ أذكرَ الطّريقَ ، ولكنْ حيثُ أنّك تُريدُ ذلك فلْنحاول ! !

ونهضَ بابا مصطفى ، وسارَ وبجواره اللص وهُوَ فَرحَانُ ، إلى حيثُ عصبَتْ مرجانةُ عيْنيه .

وعند ما وَصَلَ إلى المكان قال للص :

هُنا عَصبَتْ الجاريةُ عيْنيَّ ، وإنى أذكر أنّنى سرتُ بضعَ خطَوات نحوَ الأمامَ ، ثم انحرَفتْ بى إلى اليمين . ثم سارَتْ بى نحوَ الأمام ، ثم انحرفَتْ إلى اليسار ، وسارتْ حتّى وقَفَت .

وعصَب اللصُّ عينى بابا مصطفى ، وسارَ به يقودهُ على نحو ما وصَفَ . حتّى وقفَ أمامَ بيت قاسم الذى يسكنُ فيه على بابا الآن !

وكانَ معَ اللص قطعةٌ من الطّباشير فَخطّ بها على باب البيت

عَلامَةً خاصةً ، ثم رَفعَ العِصَابةَ عَنْ عينى بابا مصطفى ، وسألَه عمَّا إذا كانَ يعرف صاحبَ هذا البَيْت .

فأجابَ بابا مصطفى :

إنى لست من سُكان هَذا الحى ، ولذا لا أعرفُ من سُكّانه أحداً .

ولمَّا وجدَ اللص أنه لا يستطيعُ أن يخبرَه بابا مصطفى بأكثرَ ممَّا أخبرَ به شكَرهُ على ما قَامَ به من خدمَة جَليلة ، وتركَهُ يذهبُ إلى حيثُ يُريد .

أمَّا هُو فقَد أسرعَ مسرورًا إلى الغَابة ظنًّا منهُ أنه قد نجح فى مهمته نجاحًا كبيرًا ، وأنَّهُ سوفَ يُستَقْبلُ من أفراد العِصَابة استقبال الموَفّقين الظَّافرين .

خرجتْ مرجانةُ من بيت سَيِّدها بعدَ افتراق بابا مصطفى واللص لبَعض شأنها ، وعندَ رُجُوعها لحظَت العَلامة عَلى البَاب ، فوقَفَتْ تُفكر هُنَيْهةً ، وانتهى بها تَفكيرها إلى أن للعلامَة سرًّا ، وداخَلَها شكٌ كبيرٌ . وتوَجَّسَتْ منها خوْفًا ، ورأتْ أنَّهُ من الأحْوَط وضعُ مثل هذه العَلامَة بنفس المادة على أبواب الجيران ، عن اليمين وَعن الشمال ، حتى يَخْتَلط الأمر على منْ يريدُ بهم سُوءاً ! !

وأتَتْ مرجانةُ بقطعَة من الطباشير ، ووضَعَت العَلامَة على عدة أبواب عَنْ يمين دارها وعَنْ شمالها .

وفى الوقت الذى كانتْ فيه مرجانهُ منهمكةً فى عملها ، ورسم

العلامات على الأبواب — كان اللص قد وصل إلى مقر العصابة ، فخفوا لاستقباله . وسألوه عن خبره ، فقص عليهم قصة نجاحه في معرفة بيت المتطفل المقتول ، وتوفيقه في مقابلة الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يدله عليه بمحض الصدفة ، وحسن الحظ ؛ وأصغى إليه رجال العصابة وهم فرحون لتوفيقه !

وبعد أن أثنى الرئيس على إخلاص اللص المختار وبلائه واجتهاده وجه كلامه لبقية الرفاق ، قال :

أيها الإخوان : ليس لدينا وقت نضيعه ؛ هيا نذهب إلى المدينة مدججين بالسلاح ، ولكن لكى لا نثير شكوك الناس وفضولهم فلنذهب أزواجا أزواجا ، لا جماعة ، وليكن موعدنا الميدان الكبير ؛ وفى الوقت نفسه أذهب أنا وبصحبتى رفيقنا الذى جاءنا بهذا الخبر السعيد ؛ لنستدل على البيت بالعلامة التى وضعها على بابه ، وعند ذلك نقرر ماذا نصنع !

وأقر الجماعة الخطة واستحسنوها ، وأعدوا العدة فى أقرب مدة ، وغادروا معقلهم أزواجا أزواجا ، ووصلوا إلى البلد من غير أن يثيروا شبهة أحد ، وكان آخر من دخل المدينة الرئيس وجاسوسهم الذى قاد الرئيس إلى الشارع الذى به بيت قاسم ، وعند ما وصل إلى أول بيت وضعت مرجانة عليه العلامة ، أشار إليه بيده قائلا :

هذا هو البيت المقصود ! وكادا يتركان الشارع إلى حيث يجتمعان

مع بقيَّة أفراد العصابة لولا أن رأى الرئيس أن البيتَ الذى يليه علَيْه العَلامةُ نَفْسُها . ولما اقتربا من البيت التَّالى وجَدَا أن البيتَ الذى يَليه عَلَيْه نفسُ العَلامة وفى نَفْس الموْضع من الباب ، ولما استلفتَ الرئيسُ نظرَ الجاسوس إلى تَعَدد العَلامات ارتَبَكَ وحَارَ وأسقطَ فى يَده ، وخاصةً عندَ ما تَبَيَّنا أن ستَّة بُيُوت على أبْوابها عَلامَةٌ واحدة ، وحَلَفَ أنَّهُ وضعَ العَلامةَ على باب واحد فقَط ،ولا يدرى منْ علَّم الأبوابَ الخمسةَ الأخرى .

ولمَّا رأى الرئيسُ أن خُطَّتهم قد فَشلت فَشَلاً ذريعًا ، وأنهم اسْتَعَجلُوا فى الحضُور إلى المدينة ــ سارَ فى الحال إلى الميدان الكبير حيثُ كانَ الرفاقُ فى انتظاره . وأخبرَهُم بخيْبَة أملهم ، وأن تعَبَهم ذهَبَ سُدى ، وأن خيرَ ما يفْعَلون أنْ يَعُودوا أدراجهم إلى مقرهم فى الغابة أزْواجًا أزْواجًا كما أتوْا ! فعادوا إلى الغَابة نادمين على خَيْبة رجائهم ، وضَياع أمَالهم .

وعند ما استَقرَّ بهمُ المقامَ داخلَ الكهَفْ شرحَ لهم الرئيسُ تَفاصيلَ قصَّة فشلهم . ثمَّ اصْدرَ حكمَه على الرَّفيق الخائب بالموت ، فوافَقُوه ، ونَفَّذوا فيه حكمَه !

ولكنْ لما كانت سلامةُ أرواح العِصابة وأموالهم تقْتَضى كشف شريك المعتدى طلبَ الرئيسُ أن يتَطوع آخرُ للقيام بهذه المهمَّة ، فتقدم فى الحال أحدُ الرفاق من غير أن يثْنى عزمهَ مصيرُ رفيقه المقتُول

ثم قالَ لرفاقه :

سوفَ أكونُ بعون الله أكثر توفيقًا من رَفيقى التَّعس !

ولمَّا قَبل الرئيسُ ووافقت العصابةُ ، وَدَّع رفاقَه ، وسارَ إلى بابا مصطفى ، وقَدم لهُ دينارًا ليدلَّه على الدار المقصُودة كما فعل مع زميله الفَاشل ؛ واحْتال علَيه حتَّى أرضَاهُ بما قدم لهُ من الدنانير ؛ وسارًا يُمثلان الدورَ الذى مَثَّلَهُ بابا مصطفى واللصُّ الأولُ .

ولما اقتيدَ إلى باب الدار وضَع عَليْه علامةً خاصَّةً بالطَّباشير الأحمر فى مكان غير ظاهر .

ولم يمض غيرُ قليل على عَمله هذا حتى خرجَتْ مرجانةُ تلك الجاريةُ اليَقظةُ التى لا يَفُوتُ عينها أمرٌ فلَحَظت العَلامة ، وعَلمت بفراستها أنَّها علامةُ شر مبيَّت لسيدها ؛ فأسرعتْ إلى إحْضَار طباشيرة حمراءَ ، ووضَعت العلامَةَ فى المكان وبالطريقة التى وضَعها بها واضعُها على أبواب أخرى تضْليلاً لواضع العَلامة الأولى .

ولما عَادَ اللصُّ إلى رفاقه أخذ يملأُ شَدقَيه فخرًا بأنَّه حرَصَ على وَضع العَلامَة فى مكان خفِى لا يهتدى إليه أكثر النَّاس يَقَظةً وأشدهم نَبَاهَةً ؛ ففرح الرئيسُ ورفاقهُ الآخرون ظنًّا منهم أنهم لا بُدَّ ناجحون هذه المرة فى معرفة دار الغريم الثانى ، وتمييزها من الدور الأخرى ؛ وسارُوا إلى البلد فى حذر شديد متَّبعينَ النظامَ الذى اتبَّعوه فى المرة السابقة ، وحينما وصلَ اللص الجاسوسُ ورئيسه إلى الشارع

الذى به بيتُ على بابا ، سرًّا سرورًا عظيمًا حينما كشفا العلامَةَ على باب إحدى الدور ، ولكنَّ سرورهما لم يَطُل كثيرًا إذ سرعان ما لمحتْ عينُ الرئيس اليقظة العلامةَ نفسها موضُوعةً على أبواب دور كثيرة بنفس الطَّريقة وفى نَفْس المكان .

فثارت ثائرةُ الرئيس ، وغَضب غضبًا شديداً ، واضْطرَبَ اللص وانْزَعَج ؛ ورَجَعَ اللصوصُ جميعًا كما رَجَعوا فى المرَّة السَّابقة ، ولكنَّهم كانوا أكثر ألمًا ، وأشدَّ ثورةً على الرَّفيق الخائب الذى لم يلْقَ منهم رحمةً ولا شفَقَةً ، بل لقى مَصرَعَه كما لقى أخ لهُ من قبل .

عزَّ على الرئيس أن يفْقد اثنين من أقدر الرفاق وأشجعهم ، وخاف إن استَمرَّ على إرْسال ثالث أن يكون حظه كحظّ سلَفيه ؛ فعزَم على أن يتَولى بنفسه هذا الأمر الجليل لاعتقاده أنهُ أشدَّهم مكرًا ، وأوسَعُهم حيلةً ، وأسدهم رَأيًا !

وذهبَ الرئيسُ إلى البَلد ، والتقى بالإسكافى بابا مصطفى ، واستَعان به على معرفة دار على بابا ، ولكنَّه لم يضَع علامَةً على بابه كما فَعلَ الآخران ، بل درس شكلَ الباب وتفاصيلَ خصَائصه ، ورددها فى نفَسْه حتى رسَخَت فى ذهنه .

ولما اطمأنَّ إلى كل شىء قَفَلَ راجعًا إلى الغابة ، ولما دخل الكهْفَ حيثُ كان بقيةُ الرفاق فى انتظاره على أحرَّ منَ الجمر استَقْبلوه واقفين ، ولما جَلَس وجلَسُوا يحيطُون به ابتدرهُمْ بقوله :

أيها الرفاق ! الآنَ أصبحَ انتقامنا محقَّقًا ، فليسَتْ هُناك قوةٌ تحولُ بينَنا وبينَ ما نبغى لأنى واثق من البيت تمام الوثُوق، وقد فكَّرت فى أثناء عودتى فى طريقَة تنفيذ انتقامنا ، ومَعَ ذلك فأىُّ واحد منكم يَرى رأيًا أسَدَّ وأصْوب فلْيُبْده !

ثم بدأ يشْرحُ خُطَته ، ولما وافَقُوه أقرُّوه عليها .

أمرَهم أن يذهبوا إلى البَلَد ، ويَشتروا تسْعةَ عشرَ بَغْلاً ، وثمانيةً وثلاثين جرَّةً كبيرةً ، بحيثُ تسعُ كلُّ جرَّة رَجُلاً يقعُد فيها القُرفُصَاء ؛ لتُملأ إحداها بالزيت ، وتترك الأخريات فارغات لا شىء فيها .

ولم تمض ثلاثة أيام حتى أتمَّ اللصوصُ شراء البغال والجرار .

ووضعَ الرئيسُ فى كل جرَّة لصًّا من رفاقه اللصوص السَّبعَة والثلاثين ، وحمَلَ مَعَهُ سلاحه الذى يراهُ ضروريًا لتنفيذ الخطَّة المتفق عليها ، وغَطَّى الجرارَ بغطاء خاص يسمحُ بدخول الهواء اللازم ليتنَفَّسَ مَنْ فيها ، ثم دهَن الجرارَ من الخارج بالزيت إيهاماً للنَّاس بأنها ملآنةٌ بالزيت ! ! ولما تمَّ لهُ ذلك حُملَتْ الجرارُ التى بها اللصُوص وجرَّةُ الزيت على البغال التسعةَ عشر ، وساقَ الرئيسُ البغال بحيثُ يصلُ إلى البلد فى ظلامَ الليل ، وسار بهم فى الشوارع المؤدية إلى بيْت على بابا ، ولما وَصَلَ إلى الدار وجَد على بابا جالسًا فى مدخل البيت كعادته كلَّ مساء بعد تَناوله طعام العَشاء ، فأوقفَ اللص بغاله وخاطب على بابا بقوله :

لقد جئتُ ببعض الزّيت من بلد بعيد لأبيعَه في صَباح الغَد في سُوق البَلد ؛ حيثُ إنى غريبٌ ولا أعرفُ مكانًا آمنا أقيم فيه هذه الليلة ، فإذا لم يكنْ مبيتى عندك يسببُ لكَ شيئًا من الضيق أو الحرَج أكونُ مدينًا لكَ بالفضل ، وسوفَ أذكرُ كرمَ ضيافتَك ما حييت .

وعلى الرّغم من أنّ على بابا كان قدْ رأىَ الرئيسَ وسمعَه يتكلمُ حينَ زارَ كهفَهم أوّلَ مرة ، فإنه لم يعرفْه لأنّهُ كان قد بالغَ فى التخفى ، كما أنّه كانَ ماهرًا فى تقليد صوت غيره !

فرحّب على بابا بمقْدمه ، وأمر بفتح بابه عَلى مصراعيْه لتدخلَ منهُ البغالُ ؛ ونادى بعضَ الخدم ؛ وأمرَهم بإنزال البضاعة وحفْظها فى مكان أمين ؛ ووضع البغال فى الاصْطبل ؛ وتقديم ما يكفيها من العَلف ؛ ثم دخلَ ونادى مرجانة ، وطلب منها أن تُعدّ عشاءً فاخرًا لضيف كريم !

ولما انتهىَ الضيفُ من عَشائه ، كلّف على بابا مرجانة أن تُعنىَ بضيفه وتسهر على راحته !

وفى غَفْلة من مُرجانةَ خرجَ رئيس اللصُوص ، وذهبَ إلى حيثُ وُضعت الجرارُ ، ورفع أغطيتها وأعطى أعوانه أوامرَه ؛ قال لكل منهم : سأرْمى إليكم بحصى من نافذة الغرفة التى أنامُ فيها ؛ فسارعُوا إلى !

ورجعَ إلى المكان الذى تركَتْهُ مرجانةُ فيه ؛ وجاءتْ مرجانةُ وأرشدتهُ والمصباحُ فى يديها إلى الغُرفة التى خُصصَتْ لنومه .

ولكيلا يُثيرَ ريبةً عندَ أحد من أهل البيت سارع إلى إطفاء المصباح ، واضطجعَ فى فراشه بثياب سَفَره ، حتى يكونَ على استعداد فى أى لحظة .

وكان من عادة مرجانة أنّها تعد العُدة لطعام الإفطار قبلَ أن تأوى إلى فراشها ، وقبلَ أن تنتهى من إعداد لوازمه انطفأ مصباحها لنَفَاد زَيته ، ولما كانت تعلمُ أنَّ ما كانَ عندهم من زيت قد فرغَ ولم يكنْ عندها شمع ؛ احتارتْ ولم تدر ماذا تصنعُ ! ! ولما رأى أحد الخدم من رفاقها ما هى عَليْه من حيرة وارتباك قال لها وهو يحاورها :

لمَ هذه الحيرةُ وهذا الضيق ، وفى البيت مقاديرُ كبيرةٌ من الزَّيت ؟!

ولما سألته فى دهشة عن هذه المقادير من الزَّيت وعَنْ مكانها ، ذكرها بالضَّيف تاجر الزَّيت .

ولما أظهرت مرجانةُ كراهيتها لأخذ بعض الزَّيت من تجارة الضَّيف قال لها :

إن التاجرَ لو علمَ ذلك لَسرَّهُ أن يُعطيك هذا المقدار التافه ، وقد أحسَّ بكرم سيدك !

شكرَتْ مرجانةَ رَفيقها ، وأخذت إبريق الزيت ، وخرجت إلى فناء الدار ، واقتربتْ من المكان الذى خُزنت فيه الجرارُ ، فسمعتْ صوتًا خارجًا من أقرب جرَّة إليها يقول : هَلْ حانَ الوقتُ أيها الرئيسُ . . . ؟ !

وعلى الرّغم من أنّ ما سَمعَتْه قد أزعجها وأخافها فإنّها تمالكَتْ أعصَابها وفكرّت فى الأمر بسرعة كدأبها وأدركت كلّ شىء ، وأسْعَفَها ذكاؤها وحزمُها ولم يخوناها فردت على المتكلم بقولها :
لم يَحن بعد ولكنّه أوْشك !

واقتَربَت من الجرار كلها ، وكان ينْبعثُ من كل منها صوتُ إنسان يقولُ ما قالَ الأوّل ، كانت تُردُّ عليه بردها الأوّل إلى أنْ وَصَلَتْ إلى جرّة الزيت !

وضَح لمرجَانَةَ حينذاك أنّ سيدها آوى فى بَيْته ثمانيةً وثلاثين لصًّا من أشرَار اللصُوص وأخطرهم ، وأن الضَّيفَ التّاجر ما هو إلا رئيس اللصُوص ! فأسرعَت بعْدَ أنْ ملأت مصباحها بالزّيت إلى المطبخ ، وأنارت المصباحَ ، ثم أخذتْ قدراً كبيرة ، وذهبتْ بها إلى جرّة الزّيت وملأتها زيتًا ، وأوْقدت الكانون ، ووضَعت علَيْه الزّيت ، ولمّا غلى ، خرجتْ به إلى مكان الجرار وصَبّت داخلَ كلّ جرة من الزّيت المغْلى ما يكفى لقتل اللص القَابع فيها !

ولما تمّ لها ذلك من غير أن تُحدثَ جَلبَةً ولا ضَوْضاء رَجعتْ إلى المطبخ ، وأطفأت النّار والمصْباح وآوتْ إلى فراشها ، ولكنّها ظلّت ساهرةً تنظُر منْ خلال النّافذة المطلّة على فناء الدار لترى كلّ ما يحدث فيها .

ولم يَطُلْ بها الانتظارُ ، إذْ سرعان ما سَمعتْ أنّ النّافذة

التى ينامُ فيها الضَّيفُ اللئيمُ قدْ فُتِحَتْ ، ولمَّا لم يَجد اللصُّ نورًا منبَعثًا من أى غرفة فى الدار أصْغى وتسمَّعَ فلم يسمع صوتًا ، فحصَبَ الجرارَ بالحصَى ، وقد أصَاب بعضُه بعضَ الجرار ، ثم أصْغَى ، ولمَّا لمْ يسمَعْ أو ير ما يدلهُ على أنَّ رفاقَه قد استجابوا له ، بدأ يشْعُر بالقلق ، ثم حَصَبَهم مرَّة ثانيةً ، وثالثةً ، ولكنْ . . . لا حياةَ لمن تُنادى !

ولمَّا لم يَفْهم لسكوت رفاقه سَببًا ، خرجَ من غُرفته وسارَ إلى المخزن من غير أن يُحدثَ جلَبَةً أو ضَوْضَاءَ تُنَبه أصَحابَ البيت النائمين ! واقتَربَ من جَرَّة ونادى بصَوت خافت فلمْ يُجبهُ أحد ، فرفعَ الغطاء فانْتشرت إلى معاطسه رائحةُ الزَّيت المغلى ، واللحم المقْلىّ فأصابه الرعبُ ، واستولى على حواسه الفزعُ ، وعَلمَ أن خُطتَهُ قد باءتْ بالفشل ، وأنهُ جاء ليَقتُلَ صاحبَ الدار فقتَل أصحابهُ ! فلم يَسعْه إلا الهرَبُ بعد أن عالج قفل باب الدار المؤدى إلى الحديقة ، وتسلَّق جدار الحديقة .

ولما رأتْهُ مرجانَةَ يَفرُّ وأمنتْ على سيدها أوَت إلى فراشها ، وأسلَمتْ نفسها إلى نوم لذيذ !

واستيقظَ على بابا قبلَ مطلع الشمس ، وذهَب وفى صُحبتَه أحد الخدم إلى حَمَّام عام ليغتسل كعادته كلَّ يوم ، وهُو لا يعلمُ شيئًا عن الأحداث الجسام التى حدثتْ فى بيْته وكانتْ بطلَتُها مرجانةُ .

ولما عَادَ دُهشَ حينَ رأى أن الجرار لا تزالُ موجودةً ، لم يذهبْ

بها صاحبُها إلى السوق ! وسأل مرجانة التى خفَّت للقائه عن السبب فى بقاءالتاجر حتَّى الآنَ من غير أن يذهبَ إلى السوق ببضاعته .

فقالتْ له مُرجانة :

أطالَ الله بقاء مولاى ، وسلَّمه وسلَّم أهلَ بيته من كل سوء ؛ إنك سوفَ تعلمُ السببَ عند ما أريكَ ما أريدُ أن تراه .

ولما دخلَ على بابا البيتَ ، وأغلقَت مرجانةُ البابَ سارَتْ أمامه إلى المخزن ، ورفعَت غطاءَ إحدى الجرار ، وطلبتْ من سيدها أن ينْظُر إلى ما فى داخلها ، فنَظر . . . ! ! فهالهُ ما رأى . . ! ! لم يرَ زَيتًا ولكنَّه رأى رَجُلاً . . .

ارتاعَ على بابا من منظر الرَّجل ، وخرجَ مسرعًا ، فقالت مرجانةُ له : لا تُرَع . . . فإنَّ الرجُل الذى تراهُ ميت ، مسلوخُ الوجْه ! !

فقال على بابا لمرجانةَ :

أفْصحى يا مرجانةُ ، واشرَحى وفَصِّلى !

فقالتْ مرجانة :

هَدئْ أعصابك ، ولا تجهْر بصوتك فيسمعَ الخدم والجيرانُ ، إنى أريدُ أن يكونَ الأمرُ سرًّا بينى وبينك ، وسأقُصُّ عليكَ القصةَ بعد أن ترَى الجرارَ كلَّها !

ففحَصَ على بابا عن الجرار كلها ، فوجدَ أن فى كل جرة رجلاً ميتًا ، وأن الجرَّةَ الأخيرةَ والتى كانت مملوءةً بالزيت قد فرَغَ زيتها ..!!

فلبث بضعَ ثوان مشدوها لا يتكلم ! ولما عادَ إليه صوابُه وثابَ إلى رُشده ؛ سألَ مرجانة : وماذا كانَ من التّاجر ؟ ! ! وماذا فَعل ؟ ! !

فقالتْ مرجانة :

إن الذى كنتَ تظنهُ تاجرًا لم يكن إلاَّ رئيسَ اللصوص ، وسأقُص عليكَ كلَّ شيء فيما بعد ، لأنّه حانَ وقتُ إفطارك كعادتك كلَّ صباح بعدَ الحمّام ! !

ولما جلَس على بابا إلى المائدة ، وانتهى من تَنَاوُل طعام الفُطور ، قَصَّت عليه مُرجانةُ القصّة من أوّلها إلى آخرها ، وكيفَ أنها كشَفَتْ العَلامات ، وكيفَ أفسَدتْ تدبيرهم مرّتين ؛ وكيفَ ساقَتها يدا القدر إلى المخزن لأخذ قليل من الزّيت ، فكشَفَتْ حيلةَ اللصُوص !

فلما سَمعَ على بابا ما قامتْ به مُرجانةُ من أعمال مجيدة قال لها :

لقد جعَلك الله سببًا فى إنقاذ حياتى ، ونجانى من حَبائل اللصوص الغادرين ؛ فأنا مدينٌ لك بحياتى ، وجزاءً وفاقًا لك وهبتُ لك حريتك وأعتَقْتُك ، أما جزاؤك الأعظم فستعلمين خبرَه بعد حين !

ولقد كانتْ حديقةُ دار على بابا طويلةً جداً ، وبها ظلالٌ كثيرةٌ فى طرفها البعيد وتحتَ ظلال بعض أشجار باسقة — حفر على بابا —بمساعدة مُرجانةَ— أخدوداً متّسعًا طويلاً لم يمكُثا طويلاً حتى انتهيا منه نظرًا لسهولة الأرْض وليُونتها ، وإلى هذا الأخدود حملتْ جثثُ اللصوص وقذفَتْ فيه وأهيلَ علَيها الترابُ ، ثم حَمَلا الجرار وأسلحةَ

الموتى إلى مكان خفى حريز فى داخل البيت ، ولما لم يكن على بابا فى حاجة إلى استخدام البغال فقد باعها على مرات عدة ، وقامت بهذا البيع مرجانة حتى لا يشركَ أحداً غيرها فى سره ، وحتى لا يثير ريبة أحد ! !

وفى الوقت الذى كان على بابا يقوم فيه بهذه الإجراءات كان رئيس اللصوص الهارب قد وصل إلى كهفه فى الغابة حزينًا مهمومًا ، يكاد يتميز من الغيظ من خيبته وفقد أصحابه !

ولم يمكث فى الكهف وقتًا طويلاً ! لقد كانت الوحدة فى كهف مظلم أكثر من أن تحتملها أعصابه الهائجة ، فغادر الكهف مصممًا على الانتقام لموت أصحابه تلك الميتة الشنيعة .

ولهذا الغرض تخفى فى هيئة التجار ، وذهب إلى الحى الذى يقيم فيه على بابا ، واستأجر خانًا وأودعه بضاعته التى جاء بها من الكهف وكانت من الحرير والخز والديباج ، وغير ذلك مما خف حمله وغلا ثمنه ؛ ولقد كان يتخذ الاحتياطات الشديدة فى نقل بضاعته من الكهف إلى الخان حتى لا يكشف أحد أمره .

ولأجل أن يتم خطته المرسومة ، استأجر حانوتًا ليبيع فيه بضاعته ، ومن المصادفات الغريبة أن هذا الحانوت كان أمام حانوت قاسم ، وقد كان ابن على بابا قد حل فيه بعد موت عمه .

ولقد تسمى كبير اللصوص باسم الخواجة حسين ؛ وبحكم الجوار كان ابن على بابا أول من تعرف بالتاجر الجديد ، وائتنس به ،

وتحدثَ إليه كلمَّا سَنَحتْ الفُرصَة لهُما للتَّحدث . وجاء على بابا مرةً ليزُورَ ابنه ، ويطمئنَّ عليه ، فعرفه اللص فى الحال ؛ فسرَّ لذلك سرورًا كبيرًا حين عَلِم أنَّ صديقَه الجديدَ لم يكُن إلاَّ نجلَ غريمه وقاتِلَ رفاقه . فبدأ يُظهرُ التَّوددَ لابن على بابا ، ويقدمَ لهُ بعضَ الهدايا الثمينة ، وأكثرَ من دعْوته للغَداء أو العَشاء معَه ، وفى كل مرة كان يُبالغ فى إكرامه .

وكانَ صدر ابنُ على بابا ضَيقًا من الحرَج ، لأنَّه لم يكُنْ فى استْطاعَته دعوةُ الصَّديق الكريم فى بَيْته الصغير الضَّيق ، والذى لا يليقُ بمقَام التَّاجر الكبير ، فأفْضى بخبيئة نَفْسه إلى أبيه ، فرَحَّبَ بدعوَة صديق ابنه فى بيْته ، وقالَ له :

يا بُنى ؛ ادعُ صاحبَك غداً ، وسأطلبُ من مرجانةَ أن تُعدَّ العُدَّةَ منذُ الساعةَ لهذه الوليمَة .

وتقابَلَ الصَّديقَان بعدَ أن توَاعَدا ، وسارا إلى بيت على بابا بعدَ جولة فى حدائق المدينة ؛ ولمَّا وَصَلاَ إلى الدار طرقَ الابنُ البابَ قائلاً لصديقه المزْعُوم :

هَذا يا صَديقى بيتُ أبى ؛ فلقد أصرَّ بعَد ذكرى لطرف من كَرمك ، وبعْد علمه بحبنَا وصَداقتَنا أن أدعَوكَ إليه ليردَّ لكَ بعضَ ما تفَضَّلتَ به عَلىَّ ، وليحظى بشرف لقائك ، والتعرف بك .

واستقبَل على بابا الخواجة حُسين بالتَّجلَّة والاحترام والترحاب ،

ووَجْهُه وضاح ، وثغرهُ باسم .

ولما استقرَّ به المقام شكره عَلى حُسن صَنيعه مَع ابنه ، ليْس لإكرامه إيَّاهُ فحسب ، ولكن لما كَسَبَه منه من تجاربَ الحياة التى هو فى أشد الحاجة إليها لحداثة سنه ، وقلة تجاربه .

فردَّ عليه الخواجة حسين مُطْريًا صفَات ابنه ، ومما قاله :

إن ابنَك — وإن كانت تَنقُصُه تجاربُ الكبار — إلاَّ أنَّ لديه من ذكاءٍ ورَجَاحَة عقل وسرعَة إدراك وتمييز مايُعَوضُه قلة التَّجارب !!

وبعدَ أن طافوا فى أحاديثهم بشتى الموضُوعات ، هَمَّ الخواجة حسين بالاستئذان للانصراف فأوقفَه على بابا ، وقالَ له :

إلى أين ؟ إنَّه من دوَاعى الشرف والسرور لى ولابنى أن تكون ضيفَنَا الليلة ، راجيًا أن أوفيك بعضَ ما تَستَحقُّ من إكرام !

فقالَ لهُ الخواجة حسين :

إنه ليسُرنى حقًّا أن أكونَ ضيفَك هذه الليلةَ ، ولكنْ من دوَاعى أسفى أنَّنى متعودٌ ألا أذوقَ طعامًا به ملح ، ولهذا أردتُ أن أنصرفَ لأنى لاَ أريدُ أن أكونَ السبَبَ فى أنْ تُشاطرُونى طعامًا لا تستسيغُونه .

فقالَ له على بابا :

إذا كانَ هذا الأمر هو السببَ الوحيدَ فى رَغبتك فى الانصراف فالخطبُ سهل ، وَفى استْطاعتنا علاجُه ، فلا يكُن مثلُ هذا الأمْر الهين سببًا فى حرماننا من صحبَتك ، وشرف مُشاطرتك إيانا فى طعامنا

وإنى أعدك أنَّه سوفَ لا يكُون فيما يُقدمُ لكَ من طعام ذرَّةٌ من الملح ، فتَفَضَّل علَيْنا بالمكوث معَنا ، لتجلبَ السرورَ إلى قلوبنا ، والفرحةَ إلى صُدورنا .

فأظهرَ اللصُّ السرورَ والرضا وجلس شاكرًا . . !

ونهض على بابا ، وذهَب إلى المطبخ ، وأمر مُرجانةَ ألا تَضعَ ملحًا فى أى نوع من أنواع الطعام الذى يُقدم للضَّيف الكريم .

فعجبتْ مرجانةُ جدَّ العجب لهذا الأمر الغريب ، ولو أنَّها ما كانت لتَعصىَ أمر سَيدها ، أو تُراجعه فى قول يقوله ، ولكنَّها قالت له :

مَن هذا الرجلُ الغريبُ الأطوار الذى يكرَه الملح فى الطعام ؟ إنَّ ذلك سوفَ يُفْسدُ الطعام .

فقال على بابا :

لا تَغْضَبى يا مرجانة ، إنَّه رجلٌ شريفٌ كريمٌ ، فافعلى ما تُؤْمرين !

فأذعنَت مرجانةُ مرْغَمةً ، ولكنَّ الشكَّ بدأ يُساورُها ، ودفَعها حُبُّ الاسْتطلاع ورَغْبتها فى الاطمئنان إلى رُؤية ذلك الرَّجُل الذى لا يذوق الملْحَ ، ولهذا حينَ أتمت الطَّعام قصَدت أن تحملَ معَ الخدم بعض الصحاف ، وما إن رَأتْ الخواجة حسين حتَّى عَرفتْه من أوَّل نظرة ، على الرَّغم من مُبالغته فى التَّخفِّى والتَّنكر ، عرفَتْ فيه رئيسَ اللصوص الفاتكين ، فأنعمت النَّظر فى ملابسه فرأتْ

خنجرًا تحتَ ملابسه .

ولمَّا جاءَ الخدمُ بالحلْوى والفاكهة والشراب ، ذهبَتْ مرجانة إلى مخدعها ، وخلَعَتْ ملابس العَمل وارتدتْ ملابسَ فاخرةً ، وشدت على وَسَطها حزامًا منْقُوشًا بالفضَّة والذهب ، يتدلى منه خنجر ذو مقبَض مذهب ، ثم وَضَعتْ نقابًا على وَجْهها ، ولمَّا أتمت زينتها نادت أحدَ الخدم — وكانَ مشهُورًا بحذقه النَّقر على الدف — وقالت له :

هات دفَّك ، وهيَّا بنا نذهب لنُسَلىَ سيدنا وضَيْفَه الكريم .

وبدأ الخادم ينقُر على الدُّف نقرًا لطيفًا هادئًا يسر النَّفس ، ويشرحُ الصَّدر ؛ وسارَ وئيداً وئيداً حتَّى دخلَ على سيده ، ومن وَرائه مرجانةُ التى انْحنَتْ أمامَهم مُسْتأذنةً فى أن تعرضَ عليهم ألوانًا من رَقْصها .

فسُرَّ على بابا وناداها أن تعَالَىْ ، وهيَّا ارقُصى ودعينا لنرى ما تُقَدمين إكرامًا للضَّيف الكريم ! !

أمَّا الخواجة حسين الذى لم يكُن ينتظرُ هذا التكريمَ فإنَّه بدأ يخافُ أن يحولَ ذلك دونَ إتمام خُطَّته ، ولكنَّه رجا أنَّهُ إذا لم ينجح اليومَ فسوفَ ينجحُ غداً ، وخاصَّةً أنه أصْبحَ صَديق الأسرة .

وعلى الرَّغم من أنهُ كانَ يوَد ألا يوافق على بابا على الرَّقص فقد أظْهرَ سرورَه لهذا التَّكريم ، وبدأ يُطرى فنَّ مرجانةَ وبراعَةَ

النَّاقر على الدُّف .

ثم بدأ بعضُ الخدم يُغنُّون أغانى رقَصتْ مرجانةُ على نَغَماتها رقْصًا بديعًا ، كما رَقص لها سيدها وابنُ سَيدها .

وبعد أن رقصت مرجانةُ عدةَ رقصَات سلَّت خنجرها من غمده ، وشَهرَتْهُ فى يدها ، ثم بدأتْ ترْقُص رَقْصَةً فاقتْ رَقصَاتها السَّابقةَ فى دقة حَركاتها ورَشاقتها ، وخفَّة خطَواتها ، وقوَّة قَفَزاتها . وأخيرًا خَطفَت الدفَّ من الخادم ، وقَبَضَتْ علَيْه بشمالها ، وعلى الخنجر بيمينها ، وتقدمَتْ إلى سَيدها وابْنه وضَيْفهما ، ومدَّتْ إليهم الدُّفَّ ، كما تفعَلُ الرَّاقصَاتُ المأجُورات حينَ يطلبن أن يجودَ عليهم النَّظَّارةُ بما يجُودون ، فوضَع على بابا دينارًا فى الدف ، وكذلك فَعَل ابنهُ !

ولمَّا رأى الخواجةُ حُسين أنها مُتَقدمةٌ نحوه أخرَج كيسَ نقُوده ليَنْفَحها ما تجُود به نَفسُه ، وبينما كانَ يضَعُ يده فى كيس نُقُوده ، أسرعَت مرجانة وَعاجَلتْه بطَعْنة نجلاء فى قَلْبه .

ولمَّا رأى على بابا وابنُه فعلَةَ مرجانة الشَّنْعاء هبَّا مذعُورَين صَائحين فيها ، وقالَ لها على بابا :

أيها المرأة التَّعسة ! ماذا فعلْت ؟ ! ! لقد خربت بَيْتى بما اقْترفتْ يداك ! فهلْ هذا جزائى منك أيَّتها الجارية المشئومَة المنحُوسَة ؟ !

فقالت مرجانة :

إنَّ ما فعَلْته لم يكن ليخرب بيتَك ، وإنما ليُنقذكَ وأسرتك من

القتل ! انظُر إلى ما يُخبئُه ضيفُك الكريمُ من آلات القَتل ! ثم كَشَفَتْ عن الخنجر بين طيَّات ملابس الخواجَة حُسين.

أنْعِمْ النظر في وجْهه . . . ! ألا ترى فيها ملامح تاجرَ الزَّيت ، وقسمات رئيس عصَابَة اللصوص ؟ !

لقدْ جاءَ ليَقْتُلَكَ ؛ ولقَدْ حدثني قلْبي بذلك قبْلَ أن أرَاه ، وحينما طلبتَ مني ألاّ أضعَ ملحًا في طعَامه ، وأخبرتَني أنَّ تلك رغبَتُه ؛ قرُبَ الظنُّ من مراحل اليقين ، وحينما جئتُ قصْداً أحملُ بعضَ الصِّحاف ، وتفَرستُ في وَجْهه عرفْتُه في الحال ، وحينما دقَّقْتُ النظر في طيَّات ملابسه رأيتُ الخنجرَ المخبَّأ .

وصدقَ على بابا مُرجانة ، لأنَّ الأمرَ أصبحَ واضحًا لا لَبْس فيه ، وتذكَّر وجْهَهُ حينَ ذكَّرتْه به ، فنَهض واحتَضَن مرجانة وقبَّل وجنْتَيْها شاكرًا لها تَخليصه من الموت للمرة الثَّانية ، ثم قالَ لها :

إنَّ عرفاني بجميلك لا يقفُ عند هذا الحد ، إنني سأقدم لك برهانًا أعظمَ من ذلك بأنْ أطلُبَ منك أنْ تكوني زَوْجةً لابني ! ثم أدار وجهه نحو ابنه وخاطبَه بقوله :

إنَّني لا أشكّ يا بني في أن إخلاصك لأبيكَ يتطلَّبُ منكَ قبولَ هذا الزَّواج ، فأنتَ تعلَم أن الخواجة حُسين عَمل على التقرب منكَ ، والتَّودد إليكَ ، وإظهار الحب لك ، ولا غرَض لهُ إلا التَّمكن مني ، والوصُولَ إلى قتْلي انتقامًا لرفاقه ؛ وما كانَ انتقامُه لو توَصَّلَ

إليه يقُف عندى أنا: فكان لا بُدَّ منتقمًا منك أيضًا ، ومن هذا تعلَم أنَّ زَواجَك من مُرجانة زواجٌ ممّن كانتْ السَّبَبَ فى الإبقاء علَيْنا ، ووَصْلِ حيَاتنا .

وقابل الابنُ هذا العَرضَ بالسرور لا طاعَةً لوالده فحَسْب ، ولكنْ طاعَةً لشعوره وقلبه ، فقَد كانَ يُكِنُّ لمرجانة حُبًّا جعله يهُمُّ مراراً أن يَطلبَ من أبيه يدها ، ولكنَّه كانَ فى كل مرَّة ينثنى عزمُه من الخجل .

وبعد أيام احتفل على بابا احتفالاً عظيمًا بزواج ابنه بمرجانة ، وقد حرصَ كلَّ الحرص ألا يعرف الأحباب والأقارب والأصْحاب والجيرانُ الذين دعوا إلى حَفل الزّفاف أسباب هذا الزّواج وظُروفه ودواعيه !

ولم يذهب على بابا إلى كَهْف اللصوص إلاّ بعْد مرور سَنة من موت رئيس اللصوص ، ظنًّا منهُ أن اللصَّين المكملَيْن للأربعين لا يزالان على قيْد الحياة ؛ ولما مَضى هذا الوقتُ ولم يُحاول أحدٌ تعكير صفْوه ، دفعَهُ حبُّ الاستطلاع إلى الذهاب إلى الكَهْف مُتَخَفيًا ، فركب فرسَه وذهب إلى الغابة ، ولما وَصَل إلى الصَّخرة ترجَّل ، وربط الفَرَس فى شجرة ، واقتربَ من الباب ، وصَاح بكلمة السر :

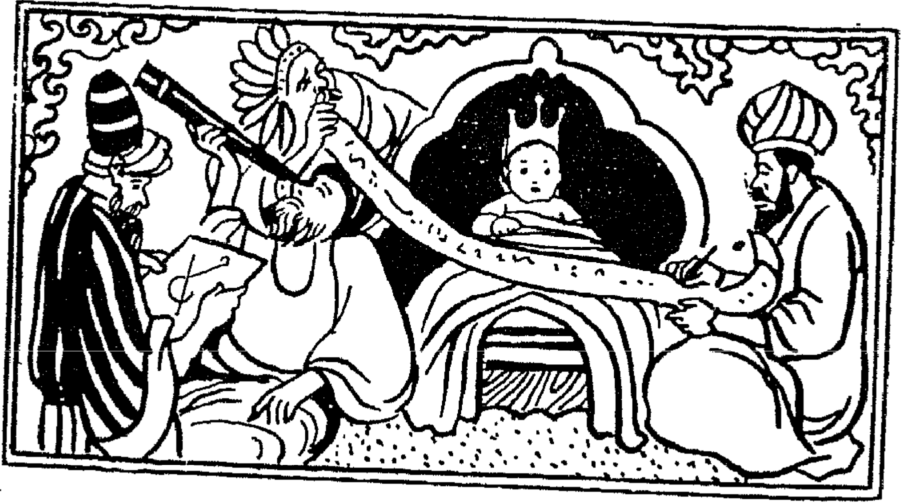
افتح يا سمسم !

فانفتَح البَاب .

فدخَلَ الكهفَ ، ولما رأى الغُبار المتراكمَ علَى ما فى داخله من أثاث ورياش وكنوز ، سُرَّ سرُورًا عَظيمًا وأيقَن أنَّ الكَهْفَ لم يدخُلْه أحدٌ منذ نقل منه الرئيسُ إلى البَلَد بضَاعته ، فاستَنبط أن جميع اللصوص الذين يعرفوُن سرَّ الكهف قد ماتوا جميعًا ، وأنّه أصبحَ الرجل الوحيد فى هذا العالم الذى يَعْرف سرَّ فتْحه ، وأنّه بذلك أصبح صاحب الكَهْف ، ومالك ما فيه من كنوز غالية ثمينة ؛ فحَمَلَ معَهُ بعضَ الجواهر والذهب فى خُرْج جاء به ، ورَجَعَ إلى بيته .

وبَعْد سنة جاءَ ومَعَهُ ابنه وعَلَّمهُ سرَّ فتح باب الكنز بعدَ أن قَصَّ علَيْه القصَّة كلَّها من أولها إلى آخرها .

وعَهد الابنُ حين أخْلَف بالسر لابنه ، وتوَارثَ السرَّ عترةُ على بابا وذريَّتُهُ ، فعاشُوا أغنياء بفضْل ما أوتى جدهم على بابا من توفيق ، وما أوتيتْ جدَّتهم مرجانة منْ ذكاء ، وحَصافة ، وسعة حيلة ، وحُسن تصرُّف ، وجَميل تقدير ، وبديع تدبير .



الأمير أشرف وملك الجن

١

كان فى الزمن الماضى البعيد ملك فى جزيرة غنية بخصبها ، وكثرة خيراتها وغلاتها ؛ وكان هذا الملك سعيداً برعيته : إذ كانوا يحبونه ويطيعونه ، ويفرحون لفرحه ، ويحزنون لحزنه . وكان يتألم ويتوجع كلما تذكر أنه قرب من الشيخوخة ، ولم يرزق ولداً يرثه فى ملكه ، ويجلس على عرشه من بعده ؛ ولهذا أكثر من الصدقات ، والعطف على الفقراء والصالحين ، عسى الله أن يمن عليه بولد من فضله ! وكانت الرعية تدعو الله ليلا ونهاراً أن يحقق أمنيته ، وييسره بولد ينجبه .

تقبل الله منه الصدقات ، واستجاب من الرعية الدعوات ، فحملت

الملكة ، ثم جاءته البشرى بأن وضعت له ولداً ذكراً ، فزاد فرحه ، واستبشرت الرعية وفرحت مثاه ، ورفرفت الرايات والأعلام على كل بيت ودكان ، وفى كل شارع وساحة من مدينته ، فرحاً بولى العهد الذى أشرقت الجزيرة بنوره .

سمى الملك ابنه أشرف ، وأحضر المنجمين الذين يقرءون الطالع فى أبراج النجوم ، والرمالين الذين يخطون فى الرمل ، ويقرءون البخت ؛ أمروهم أن ينظروا فى النجوم ، ويخطوا فى الرمل ، ليعرفوا أحوال ابنه ، وحظه فى حياته ، فجاءوا ، ونظروا نظراتهم ، وخطوا خطوطهم ، وحسبوا حسابهم ، ثم قالوا للملك :

إن الأمير المبارك سيطول عمره ، وسيكون ثابت القلب ، رابط الجأش ، شجاعاً جريئاً . . . ولكنه سيلقى كثيراً من المتاعب والمصاعب فى فترة من فترات حياته ، ولكنه سيخرج منها سليما معافى .

لم يبتئس الملك بماقالوا ، ولم يحزن ، وقال فى نفسه :

ما دامت العاقبة سليمة ، فلا بأس على ابنى أشرف أن يلقى الشدائد ، فإن الذهب لا يصفو ، ولا يخلص من شوائبه إلا بعد أن يحمى فى النار ويصهر ، فالشدائد خير مؤدب ، وهى التى تروضه على تحمل أعباء الملك فى صبر وجلد ، وحلم وأناة ، فلا يتسرب إليه الجزع الذى قد يلقى بصاحبه فى التهلكة .

ثم أعطى الملك المنجمين والرمالين من المال ما فرحوا به ، وأمرهم

أن ينصرفوا إلى شأنهم .

عني الملك والملكة بتربية أشرف وتعليمه ، لينهض بشئون الملك ، مستعيناً بعلمه وثقافته ، فلما بلغ سن التعليم أحضرا إليه المعلمين والمربين ، فقاموا بتعليمه وتربيته على خير وجه .

وما لبث الملك والد أشرف أن فجأه مرض ألزمه فراشه ، وعجز الأطباء عن مداواته ، ولما يئس الملك من الشفاء ، وشعر بدنو أجله ، دعا ابنه أشرف ، وأجلسه إلى جواره ، وجعل ينصح له ، ويبصره بأموره ، ومما قاله له :

يا بنى ، إن أعظم شيء يهنأ به الملك فى حياته أن تحبه رعيته ، فإنهم قوته وسيفه وحصنه ، وهم مشرق هناءته ، كما أنهم منبع شقاوته فاجتهد أن يحبوك ويحترموك ، ويلتفوا من حولك ، واحذر أن تحكمهم بالسيف والرهبة ، فإن الحكم بالسيف والرهبة ، يوشك أن يكون غصة .

وإياك أن تكون أذناً للمتملقين ، الكذابين المتشدقين ، فإنك إن قربتهم منك ، واستمعت لقولهم أضلوك وأوقعوك فى المهالك .

وإياك أن تتعجل فى حكمك ، فلا تثب أحداً ، ولا تعاقب أحداً ، إلا بعد أن تتبين الحق من الباطل ، والبريء من المذنب ، حتى لا تعفى مذنباً ، ولا تعاقب بريئاً .

واخصص بمشورتك الأعوان الصالحين المخلصين ، واستمع لقولهم ، فإنهم لك خير عون ، وأقوى سند .

٢

مات الملك ، ولبث ابنه فى الحداد سبعة أيام ، ثم توجته الرعية ، وجلس على عرش أبيه فى اليوم الثامن ، ورأى أشرف من الطاعة ، وعظيم الإجلال ، وأبهة الملك ، وعظمة الحكم ما غره ؛ فشغلته لذته وهواه ، والتصرف عن شئون ملكه ، وجانب ذوى الرأى والإخلاص من أعوانه ، وركن إلى قرناء السوء ، وأعوان الفساد والعبث ، الذين زينوا له اللهو واللذة ، فأنفق فيهما أمواله التى ورثها عن أبيه ، وساءت حاله ، وسخطت عليه رعيته ، وتهامسوا بالعصيان والتمرد عليه وخلعه .

وكانت أمه الحازمة العاقلة المجربة ، لاتسكت عن نصحه ، مبينة له سوء مصيره ، منذرة إياه بالثورة فى وجهه ، وإنزاله عن عرشه ... ولكنه ما كان يستمع لنصحها ، ولا يهتم بوعيدها وإنذارها ، حتى أوشك بركان الثورة أن ينفجر ويهيج ، فأغلظت له أمه فى القول ، حتى انتبه من غفلته ، وعرف أنه أساء إلى نفسه ، وظلم رعيته ، بإهمال أمورها ، واتباع هواه ، وعصيانه أمه . . . ورجع إليه رشده ، فطرد قرناء السوء من مجلسه ، وأبعدهم عن صحبته ، وقرب إليه الأعوان الصالحين من خاصته ، وسار فى رعيته سيرة حسنه ، فانطفأ لهيب الثورة قبل أن يمتد وينتشر ، وسكنت ريح الفتنة قبل أن تهب وتثور ، واطمأن فى عرشه

باطمئنان رعيته ، ولكن الحزن على أموال أبيه التى ابتلعها عبثه ، لا يزال يحز فى قلبه ، ويحرق كبده ، ندماً وحسرة .

وذات ليلة نام والحزن على ما ضاع من أمواله يملأ صدره ، فرأى فى منامه شيخاً كبيراً ، أرخى لحية طويلة وضاءة على صدره ، ولبس ثوباً فضفاضًا ناصعاً بياضه ، فدنا منه الشيخ وقال له :

اعلم يا أشرف أن الحزن لا يدوم ، وأن الفرح لا يدوم : فكم من فرحة أعقبتها ترحة ، وكم من ترحة أعقبتها فرحة ، فإذا أحببت أن يزول عنك فقرك ونحسك ، ويرجع إليك غناك وسعدك ، فارحل إلى مصر ، وزر مدينة القاهرة ، وستاقى فيها ما يسرك .

استيقظ أشرف من نومه ، فقص رؤياه على أمه ، وأبدى لها أنه عازم على الرحيل إلى القاهرة .

اندهشت أمه وقالت :

يا بنى ! كيف تسير وراء الأوهام ، وتصدق أضغاث الأحلام ؟ ! وإذا كان الحظ السعيد سيواتيك ، فلم لا يأتيك وأنت فى أهلك وناديك ؟!

قال أشرف :

لا تظنى يا أماه أن كل الأحلام أضغاث وأوهام ، فقد سمعت من العلماء العجائب من أحلام صدقت وما كذبت ، ووقعت فى عالم اليقظة ، كما رئيت فى عالم النوم والغفلة ، وإنى واثق أن رؤياى صادقة ، فقد بدا لى الشيخ فى إجلاله وقداسته ، وجاءنى ليمد لى يد المعونة ، ويرشدنى

إلى ما يصلح من شأنى ، ويبنى ما هدمته بجهلى وطيشى ، ولهذا فإنى مصر على أن أطيعه ، وأرحل إلى القاهرة .

حاولت الأم أن تبطل إصراره ، وتصرفه عن رحلته ، ولكنها باءت بالإخفاق والفشل ، فعهد أشرف بشئون الملك إلى أمه ، وسار مستخفياً وحده ، لا يعلم من أمره أحد غير أمه ، ولم يصحب معه أحدا من رجاله وخدمه ، وقاسى كثيراً من الشدائد فى سفره ، حتى كان فى القاهرة ، فوجدها أكبر مدينة رآها ، وأجمل مدينة تبعث السرور فى نفوس زائريها ، وأخذ أشرف يمشى فى شوارعها معجباً بمبانيها ، ونشاط أهلها ، وما يبدو عليها من مظاهر الغنى والثروة ، والإجلال والهيبة ، فجعل يمشى ويمشى ، حتى شعر بالتعب ، فرأى مسجداً من مساجدها ، فدخله واضطجع فيه ، فأخذه النوم لفرط التعب الذى لقيه من كثرة مشيه .

ومن العجب أنه رأى فى نومته هذه الشيخ الذى رآه فى منامه وهو فى قصره ، فقد جاءه الشيخ على صورته وقال له :

لقد رضيت عنك يا بنى ، لأنك صدقتنى وأطعتنى ، واعلم يا بنى أنى ما أمرتك أن ترحل إلى القاهرة ، وتتحمل مشاق السفر ومتاعبه ، إلا لأختبر ثباتك وصبرك ، وجراءتك وشجاعتك ، وقد أثبتّ برحلتك هذه أنك شجاع مقدام ، وأنك أهل لأن تكون أسعد ملك ، وأغنى ملك ، فارجع إلى بلدك ، وستجد فى قصرك من الأموال مالا يحصيه العد ، ولا تجده فى قصر ملك من الملوك .



الملك أشرف فى طريقه إلى القاهرة

استيقظ أشرف من نومه حزيناً ، يقلب كفيه على ما تحمل من مشاق السفر ، دون فائدة ولا عائدة ، وقال فى نفسه :

كيف أعصى أماً ، وأطيع حلماً ؟ ! يا أمى ، لقد لمست خطئى بيدى ، وأحمد الله إذ لم يقف على سفرى أحد من رعيتى ، ولو عرفه أحد لكان حديثى مضغة فى الأفواه ، يتندر به الناس فى كل مجلس ، معذرة يا أمى ، فقد أنبت إليك ! وإنى لراجع وملق نفسى بين يديك ، ولن أخالف لك بعد هذا أمراً . . ثم انقلب راجعاً إلى أمه نادماً .

استقبلته أمه فرحة بعودته ، وسألته أن يحدثها عن رحلته ، فقص عليها كل شىء وقع ، من يوم أن فارقها إلى أن رجع ، واعترف لها بخطئه ، واستغفرها من ذنبه ، وأبدى لها من الأسف والحسرة ، ما ملأ قلبها رأفة به وعطفاً عليه ، فقالت :

لا تحزن على ما فاتك ، ولا تتعب نفسك بلومك وتقريعك ، فما وقع لك أمر مقدور ، والمقدور لا مفر منه ولا مهرب ، ولكنى أحب أن يكون لك منه عظة وعبرة ، وأوصيك بالفضيلة فى عملك وسعيك ، وبالحزم والحكمة فى رأيك وقولك ، وأن تجتنب اللهو وأهله ، والسوء وقرناءه ، وأن تهتم بشعبك ، وتسعى إلى إسعاده ، وتحقيق المجد له ، فإنما مجدك من مجد شعبك ، وسعادتك من سعادته . فقال لها :

سمعاً وطاعة ، ولن أعصى لك يا أماه أمراً !

٣

مضى النهار الذى قدم فيه أشرف ، وجاء الليل : فأوى إلى فراشه ، وهو عازم على أن يفى بوعده لأمه ، فيطيعها ويعمل بنصائحها : وما لبث أن غرق فى النوم ، فجاءه فى المنام الشيخ نفسه ، الذى جاءه فى الحلمين السابقين ، وقال له :

يا بنى ! لقد حان موعد غناك وهناءتك ، فإذا استيقظت فى الصباح فخذ فأساً ، وادخل غرفة أبيك الخاصة به ، واحفر الأرض بفأسك ، فى الركن الأيمن من الحجرة حين دخولك ، حتى تعثر على الكنز العظيم .

ثم اختفى الرجل ، واستمر أشرف نائماً حتى مطلع الفجر .

استيقظ أشرف وهو فى عجب عجاب من ذلك الشيخ ، ومن قوله ، فأسرع إلى أمه ، وقص عليها رؤياه ، فابتسمت أمه وقالت :

إن هذا الشيخ لعنيد ، ولا أدرى ما يريد ، أما كفاه أنه خدعك ودفعك إلى زيارة القاهرة ، ثم خدعك وأرجعك منها صفر اليدين ، لا باليمين ولا بالشمال ؟ ! وما رأيك فيه يا أشرف ؟ ألا تزال تصدقه ، وتطيع أوامره ؟

قال :

يخيل إلى يا أماه أنى لست مصدقاً ولا مكذباً ، وأنا الآن أمام قوله

كالحائر المتردد ، الذى يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، وربما كنت أشد ميلا إلى تكذيبه ، ولكن حب الاستطلاع يدفعنى إلى طاعته دفعًا ، ولهذا عزمت على أن أصدع بأمره .

ضحكت أمه طويلا ثم قالت : لست أنا مثلك فى شك وريبة ، وما هذا الشيخ عندى إلا صادق فى قوله ، ولأجل أن تطيب نفسك ، ويطمئن قلبك . نفذ ما أمرك الشيخ به ، فإنه عمل هين . لا تلقى فيه من التعب والمشقة . ما لقيته من رحلتك إلى القاهرة .

قال أشرف :

لقد نبهنى قولك هذا إلى شىء كنت عنه فى غفلة ، وإنه ليحملنى على أن أصدق الشيخ فيما قاله .

قالت :

وما ذلك الشىء ؟

قال :

أرى أن هذا الحلم الأخير مكمل للحلمين السابقين ، فأنت تعلمين أنه فى الحلم الأول أمرنى بزيارة القاهرة ، وفى الحلم الثانى أمرنى بالعودة إلى قصرى ، وقال لى : ما أمرتك بزيارة القاهرة إلا لأختبر ثبات قلبك وصبرك على المتاعب . وجرأتك على ركوب المصاعب . وفى الحلم الثالث أرشدنى إلى الكنز ، وبين لى كيف أصل إليه . فالأحلام الثلاثة سلسلة متصلة الحلقات . وعلى فرض أنها أضغاث أحلام فقد احتملت متاعبها ، فى

الرحيل إلى القاهرة والعودة منها . ومن الحكمة أن أتعب قليلا وأبحث عن الكنز الذى وعدنى الشيخ به . فإن عثرت عليه فذلك ما أحبه وأبغيه . وإن لم أعثر عليه فقد أرحت نفسى من التفكير فيه . بفقد الأمل فى العثور عليه .

قالت :

جعل الله الخير لك فيما عزمت عليه .

أخذ أشرف الفأس ودخل حجرة أبيه وحده ، وأغلق عليه بابها . وجعل يحفر الأرض فى الركن الأيمن الذى دله الشيخ عليه ، حتى غاص فى الأرض بضع أقدام . وهو لا يجد شيئاً . وكاد اليأس يتسرب إلى نفسه ، ولكنه ثابر على الحفر وصبر ، حتى اصطدمت فأسه بشىء صلب ، فانتعش الأمل فى نفسه ، وأحس أن جسمه زاد قوة . وجعل يكشف التراب عن هذا الشىء الصلب حتى بان له حجر أبيض مربع الشكل ، فلما رفعه وجد من تحته سلماً نازلا فى الأرض نحو مترين ، فنزل فيه ، فوجد أمام نهايته باباً مغلقاً بقفل حديدى ، فكسر القفل بفأسه ، وفتح الباب فوجد وراءه سلماً آخر من المرمر الأبيض نازلا إلى مسافة تبلغ أربعة أمتار ، فنزل فيه حتى نهايته ، فوجد نفسه أمام باب مغلق ، ففتحه ودخل ، فإذا هو فى حجرة فسيحة . بطنت حيطانها بالفسيفساء ، وأرضها وسقفها من البلور السميك ، ووجد فيها أربعة أرفف مثبتة فى الحيطان تثبيتاً متيناً ، كل رف فى حائط من حيطانها ،

وفوقه عشر جرار كبيرة ، فحدثته نفسه :

ماذا فى هذه الجرار ؟ ! أفيها ذهب ؟ ! أفيها جواهر ؟ ! أهى فارغة ؟ !

وتقدم إلى واحدة منها ، فرفع عنها غطاءها ، ونظر فيها ، فوجدها مملوءة ذهباً ؛ وكشف الغطاء عن الجرار الباقية ، فوجدها مملوءة ذهباً كالجرة الأولى ، فأخذ حفنة من إحداها وانفلت مسرعاً إلى أمه ، وناولها الذهب الذى معه ، وقص عليها قصته .

فرحت أمه فرحاً عظيماً وقالت :

لقد أصبحت أغنى الملوك يا آشرف ، فإياك أن تنسى أيام محنتك وشدتك ! إياك أن تنسى فقرك الذى جره عليك قرناء السوء ، وانغماسك فى شهواتك ولذاتك ! إياك أن يغرك المال وكثرته ، فتعود إلى عبثك ولهوك ، فإنك إن عدت إلى عبثك وقعت فى شدة ماحقة لا تخرج منها أبداً !

فقال لها :

اطمئنى وقرى عيناً ، فلن يكون منى إلا ما يرضيك يا أماه ، ويرضى الله والصالحين الطيبين من عباده .

وقالت أمه :

أرنى يا أشرف تلك الحجرة المدفونة تحت الأرض التى بناها أبوك سرًّا ، دون أن يعلم بها أحد .

فأخذ أمه ، ومضى بها حتى كانا فى الحجرة التى فيها جرار الذهب

وأخذت أمه تجول فيها ببصرها باحثة فى روية وتؤدة ، حتى وقع بصرها على جرة صغيرة لم يكن أشرف قد رآها من قبل ولا عرفها، فنبهت ابنها ، وأشارت إليها ، فأسرع إلى الجرة وكشف غطاءها ، وأخرج ما فيها. فإذا به مفتاح من ذهب ، ولم يكن فيها شىء سواه ؛ فأمسكته الملكة ، وقلبته فى يديها وقالت :

لا أظنه إلا مفتاحاً لكنز آخر ، فأين بابه الذى هذا مفتاحه ؟ يخيل إلى يا أشرف أن الباب فى هذه الحجرة ، فلنبحث عنه فى حيطانها ، فقد يكون بطن بالفسيفساء مثلها ، مغالاة فى إخفائه . . .

فأخذا ينظران فى الحيطان نظرات تكاد تثقبها ، ذهاباً وجيئة ، صعوداً وهبوطاً ، حتى عثر بصر أمه بثقب صغير فى وسط الحائط ، وكان هو ثقب المفتاح الذهبى الذى معهما .

فتح أشرف الباب ، ودخل هو وأمه حجرة أخرى فى سعة الحجرة التى فيها جرار الذهب ، فألفيا فيها تسع قواعد من الذهب ، وعلى كل قاعدة تمثال من الماس، يشع منه ضوء ينير الحجرة ، ما عدا القاعدة التاسعة فإنها خالية، ليس فوقها شىء ، إلا قطعة من النسيج الأبيض ؛ فأخذها أشرف ونظر فيها فوجد عليها كتابة قرأها على أمه فقال :

اعلم يا بنى أنى ما حصلت على هذه التماثيل التى لن تجد مثلها عند ملك من الملوك إلا بشق الأنفس ، وإن التمثال التاسع التى وجدت قاعدته خالية ، أجمل من هذه التماثيل ،ويعدلها وحده فى قيمتها وجمالها وروعتها،

فإن أحببت أن تحصل عليه لتهنأ به فاذهب إلى القاهرة وابحث عن مملوك لى اسمه صباح ، وهو معروف مشهور ، إن سألت عنه أى إنسان دلك عليه ، فإذا لقيته فعرفه بنفسك ، وقص عليه قصتك ، واطلب منه أن يساعدك فى الحصول على التمثال التاسع ، وستجده خير عون لك حتى تحصل عليه .

وبعد أن قرأ الكتابة قال لأمه :

يبدو لى أن والدى له رغبة فى الحصول على التمثال التاسع ، فقد مدحه وزكاه ، وأرشدنى إلى طريقة الحصول عليه ، ولولا رغبته ما عرفنا به ، ولا دلنا على طريقة إحضاره ، ولهذا أرجو منك أن توافقينى ، وتأذنى لى بالسفر إلى القاهرة لإحضاره .

فقالت :

لا مانع لدى من سفرك ، فإنى أعتقد أن الشيخ الذى جاءك فى أحلامك رجل صالح مبارك، وما نالك من هذا الخير بسببه ، ومن تدبيره ورأيه . وستعود إلينا إن شاء الله سالماً غانماً ؛ أما شئون الملك فسأنهض بها أنا ووزراؤك الصالحون ، فسر يا بنى على الطائر الميمون ، والله يتولاك فى غربتك .

* * *

رحل أشرف إلى القاهرة ، وسأل عن صباح فعرف أنه من كبار تجارها وأغنيائها ، وأنه رجل كريم يحب الضيوف ، وبخاصة الغرباء .

وسار به إلى داره أحد الناس الذين سألهم عنها ، وهناك طرق الباب فانفتح ، وقابله مملوك فسأله : من أنت يا سيدى ؟ وماذا تريد ؟

قال أشرف :

إنى رجل غريب ، وقد سمعت أن سيدك كريم يحب الضيوف ، فجئته لأنزل عنده .

قال المملوك :

انتظر قليلا حتى أبلغ سيدى .

ثم أسرع المملوك ودخل إلى سيده ، وأخبره أن غريباً بالباب يبغى أن ينزل عندك .

فقال له :

على الرحب والسعة ، أحضره إلىّ من فورك .

رجع المملوك إلى أشرف مسرعاً ، وقال له :

سيدى يقول : تفضل على الرحب والسعة .

ثم سار به فى فناء واسع ، حتى انتهى إلى بهو فسيح ، فاستقبله فيه صباح استقبالا كريماً ، وأجلسه ورحب به ، وشكره شكراً جزيلا ، لأنه اختاره للنزول عنده ، وخصه بشرف ضيافته .

قال أشرف :

إن الذى اختارك وجاءك أشرف ابن ملك الجزيرة ، الذى مات وانتقل إلى رحمة ربه .

قال صباح :

إنه سيدى وأنا مملوك له ، وحينما كنت عنده لم يكن له ولد ، فما سنك يا أشرف .

قال :

عشرون سنة . . ومنذ كم سنة فارقت والدى ؟

قال صباح :

فارقت سيدى منذ اثنتين وعشرين سنة ، وأحب أن أقتنع أنك ابنه ، فهل تستطيع إقناعى ، ويكون لك شكرى ؟

قال أشرف :

ستعرف أنى ابنه مما أقصه عليك .

ثم قص عليه قصة العثور على جرار الذهب وعلى التماثيل ، وأنه وجد على القاعدة التاسعة قطعة من النسيج الأبيض قد كتب فيها والدى أن صباحاً مملوكى بالقاهرة ، وأنه هو الذى يعينك ويرشدك إلى التمثال التاسع ، وأمرنى بالقدوم إليك ، لتعيننى على الحصول على التمثال التاسع ، فإنى لن أستطيع الوصول إليه إلا بمعونتك .

ولما فرغ من قصته نهض صباح ، وانكب على يديه لثماً وتقبيلا ، وقال :

أنت سيدى ، وابن سيدى رحمه الله ، وسأدلك على التمثال ، وأعينك على نيله ، بعد أن تستريح ، ويذهب عنك تعب السفر . ثم قال :

قد أعددت اليوم وليمة فاخرة لأعيان القاهرة ، وهم الآن جلوس حول المائدة ، وقد كنت تركتهم وجئتك لاستقبالك ، وهم الآن ينتظرونى ، وأحب أن تشرف الوليمة بحضورك ، فهل تسعدنا وتشرفنا بأن تأكل معنا ؟ وإن أحببت أن تأكل وحدك فإنى طوع يمينك .

قال أشرف :

يسرنى أن أكون معكم .

دخل به صباح قبة فسيحة قد زينت حيطانها بالرسوم والصور ، وفيها مائدة كبيرة ، ومن حولها أعيان القاهرة على مقاعدهم ، فأجلسه فى مكان يليق به ، وجعلوا يأكلون . . وكان صباح نفسه ، يقضى حاجة أشرف ، حتى كأنه خادمه ، ولهذا عجب الضيوف ، وأخذوا يتهامسون متسائلين عن هذا الضيف الجليل، الذى اهتم به صباح هذا الاهتمام العظيم .

ولما انتهوا من الأكل وجلسوا يتحدثون قال صباح لهم :

أحب أن أعرفكم بهذا الزائر الكريم ليزول عجبكم ، هذا أشرف ابن ملك الجزيرة ، الذى اشترانى بماله ، وكنت أحد مماليكه ، وقد أذن لى بالمجىء إلى القاهرة لأشتغل بالتجارة ، فجئت ، وبارك الله لى فى تجارتى حتى أثريت واغتنيت كما تعلمون وترون . . وقد مات سيدى ملك الجزيرة — رحمه الله — قبل أن يعتقنى ويمنحنى حريتى ، ولهذا فلا أزال مملوكاً لسيدى أشرف ابنه ، وما أملكه من تجارة ومال فهو ملكه، إن

أراد جردنى منه ، لأن العبد وما ملكت يداه لسيده .

فقطع أشرف حديثه وقال له :

لقد ثبت لنا أنك رجل كريم نبيل ، وكم من مماليك قضى عليها أن تباع وتشترى ولكنهم من أسر كريمة شريفة ، عريقة فى الحسب والنسب ، ولهذا فإنى أشهدكم أن صباحاً حر . وأن ما يملك من الأموال فهو له ، لا يشاركه فيه أحد غيره ، وبعد هذا فله عندى كل ما يرضيه .

اغرورقت عينا صباح فرحاً وغبطة ، وأقبل على أشرف ، فقبل الأرض بين يديه ، وشكره شكرًا جزيلا .

ثم أخذ الضيوف يتحدثون ، ويتبادلون طرائف الأخبار والنوادر ، حتى أقبل المساء ، فوزع صباح عليهم الهدايا كعادة الناس فى ذلك الوقت ، ثم انصرفوا إلى منازلهم .

بات الملك أشرف ليلته فى حجرة خاصة على فرش وثير من الحرير القيم ، وفى الصباح قال لصباح :

إنى أشعر بالراحة التامة ، وأحب أن نبادر بإحضار التمثال التاسع فإنى ما جئت إلا من أجله .

فقال صباح : إن دونه المصاعب والأخطار ، وفى الإقدام على طلبه مجازفة ومخاطرة .

فقال الملك : لن أرجع إلى عاصمة ملكى من غيره ، وإن هلكت فى طلبه .

* * *

أمر صباح الخادم أن يعدوا العدة للرحيل ، فأحضروا المطايا ، وما يحتاجون إليه من الزاد والأمتعة والخيام والخدم . ثم ركبوا وساروا نحو الجنوب ، وشاهدوا فى طريقهم كثيراً من آثار المصريين القدماء ، ثم ولوا وجوههم نحو الغرب ، وما زالوا سائرين حتى وصلوا إلى مرج ناضر الخضرة ، بديع المنظر ، فأمر صباح الخدم أن يضربوا فيه الخيام ، ويقيموا فيها حتى يعود هو والملك إليهم . ففعلوا ما أمرهم به .

قال صباح للملك :

هيا بنا ، فقد اقتربنا من المكان الذى حف بالخطر ، والذى لا يجسر على أن يذهب إليه ، أو يدنو منه ، إلا كل شجاع ثابت القلب .

قال الملك :

كن مطمئناً ، فلن يخور لى عزم ، أو يضعف لى قلب ، أمام أى خطر ، وإن كان فيه الموت .

وكانا يقولان ذلك وهما يسيران ، حتى كانا على شاطئ بحيرة فسيحة ، فوقفا ، وقال صباح للملك :

سنعبر هذه البحيرة .

قال الملك :

وكيف نعبرها وهى واسعة ، ويبدو لى أنها عميقة ، وليس لدينا مركب ؟ !

قال صباح :

سنركب فى مركب ملك الجن، وستجده حاضراً أمامنا بعد قليل! .. ولكنى أوصيك أن تستمع لما أقوله لك ، وأن تنفذه بنصه وفصه ، وألا تتهاون فيه أبداً .

قال الملك :

قل ما شئت ، فإنى سامع مطيع .

قال صباح :

الزم الصمت ، ولا تتكلم، ولا تسأل عن شىء أبداً ، وإن رأيت أو سمعت ما يثير العجب فى نفسك . واحذر أن تسأل ملاح المركب أو تكلمه ، مهما يكن شكله ، ومهما يفعل ، فإن انفلتت من فمك كلمة واحدة غاص المركب فى البحيرة وغرقنا .

قال الملك :

كن مطمئنًا ، فلن أنبس ببنت شفة ، وإن رأيت الموت بعينى رأسى .

وحانت منهما التفاتة نحو البحيرة فوجدا مركبًا راسياً على شاطئها، كأنه خرج من الماء ، أو نزل من السماء ، وكان من خشب الصندل ، وساريته من الكهرمان ، وقلعه من الحرير الأزرق ، وفيه ملاح عجيب الشكل ، فرأسه رأس فيل ، وجسمه جسم النمر ، فمد خرطومه وحمل أحدهما ووضعه فى المركب ، ثم مده إلى الآخر وحمله ووضعه فى

المركب بجوار صاحبه ، ثم أقلع المركب وأخذ يجرى فى سرعة تثير العجب ، حتى وصل إلى شاطئ جزيرة ، فحملهما الملاح ونقلهما إليها واحداً بعد واحد . وإذا ذاك قال صباح :

الحمد لله ، قد نجونا من الغرق بفضل سكوتك وصمتك ، ونحن الآن فى جزيرة ملك الجن ، ولا بأس من أن تترك الصمت وتتكلم ، وهى جزيرة ما رأيت مثلها جمالا وروعة .. تعال معى .

ومشى فى بطء ثقيل وهو يقول :

أرأيت مثل هذه الأشجار جمالا وبهجة ؟

أوقع بصرك على أزهار مثل هذه الأزهار فى أشكالها وألوانها ؟

أشممت رائحة عطرة كهذه الرائحة التى تعطر أرجاء الجزيرة ؟

أرأيت شمساً ساطعة وضاءة لا تشعر بحرارتها كهذه الشمس المشرقة ؟

أرأيت مياهاً كهذه المياه التى تنساب فى الجداول كأنها الفضة المذابة ؟

أوجدت نسيما كهذا النسيم الرخاء الذى يبعث فى الجسم النشاط والراحة ؟

أسمعت تغريداً كتغريد هذه الطيور الجميلة ؟

واستمرا ماشيين والملك فى شبه ذهول من هذا النعيم الذى يخوض فيه ، حتى كانا عند قصر منيف ممتد فى السماء بنى من الزمرد الأخضر ، أحاط

به جدول واسع يجرى فيه الماء ، وعليه جسر تجاه باب القصر الذهبى . وكان هذا الجسر صدفة واحدة طولها عشرة أمتار ، وعرضها ستة أمتار ، وقد وقف على هذا الجسر كتيبة من الجن لحراسة القصر ، طول الواحد منهم عشرون مترًا ، وفى يد كل منهم عمود من الحديد زنته ألف رطل ، فقال صباح :

لنقف هنا ، فإننا إن تقدمنا خطوة واحدة أهلكنا هؤلاء الحراس ، وسأقوم بعمل سحرى يمنعهم من المجىء إلينا .

وتمتم صباح فإذا به يخرج من جيبه أربعة أشرطة من الحرير الأصفر ، فلف صدره بشريط ، وأدلى شريطاً آخر على ظهره ، وناول الملك الشريطين الآخرين ، وأمره أن يفعل بهما كما فعل . ثم فرش بساطين كبيرين ، ونثر على أطرافهما أحجاراً كريمة ، وعنبراً ومسكاً وجلس هو على أحدهما ، وأمر الملك أن يجلس على الآخر ، وقال له :

إياك أن تترك البساط ، فإنك إن فارقته هلكنا .

ثم قال :

سأدعو ملك الجن ليأتينا هنا ، إنه إن كان راضياً عن مجيئنا جزيرته أتانا فى شكل إنسان جميل ، وإن كان غير راض عن مجيئنا أتانا فى شكل ثعبان كبير بشع مخيف ؛ فإذا جاءنا فقم إليه وحيّه وعظمه ، واحذر أن تفارق البساط مهما يكن من الأمر ، فإنك إن فارقته هلكنا ، فإذا انتهيت من تحيته وتعظيمه ، والثناء عليه فقل له :

إن أبى خادمك قد دعاه الموت فلبى دعوته ، وقد كان فى حياته متمتعاً برعايتك وحمايتك ، وأنا ابنه وخادمك ، فهل أطمع فى أن تحميني وترعانى ، وتغمرنى بإحسانك وعطفك ، كما غمرت والدى بكل أولئك ؟

فإذا قبل منك الرجاء ، وسألك عن حاجتك فقل له :

أود أن تمن على خادمك وابن خادمك بالتمثال التاسع .

قال صباح :

فإنى لا أشك فى أنه سيعطف عليك ، ويجيبك إلى طلبك .

ثم بدأ صبـــاح يتلو عزائمه ، فما كان إلا أن ومض برق يخطف الأبصار بريقه ، وزمجر الرعد ، فزلزل الأرض من تحتها بهزيمه ، وحجب السماء سحاب كثيف أسود ، وأظلمت الدنيا ، وهبت عواصف هوجاء هنا وهناك ، حتى ظن الملك أن إسرافيل قد نفخ فى الصور ، وبدا عليه الفزع والخوف ، فقال له صباح :

لا تخف يامليكى ، فإن الأمور تجرى كما نريد وينبغى ، وليس فى الأمر شيء نخافه ونحذره .

وبعد قليل سكنت العواصف ، وانقشعت السحب ، وسكت الرعد ، واختبأ البرق ، وعادت الدنيا كما كانت ، وجاء ملك الجن فى هيئة إنسان جميل ، يزينه الوقار والهيبة ، فنهض الملك مسرعاً إليه وحياه . . وسرد على مسامعه فى أدب واحترام ما وصاه به صباح ، فابتسم ملك

الجن ابتسامة طويلة عذبة ، تشع حناناً وعطفاً ورحمة ، ثم قال :

يا بنى ، لقد أحببت والدك — رحمه الله — وشملته بعطفى وحمايتى وإحسانى ، وكان كلما زارنى وهبت له تمثالا من التماثيل التى رأيتها فى حجرته . وإنى أحببتك كما أحببت والدك ، وقد زرته قبل أن يموت بيومين اثنين ، وأمرته أن يكتب ما كتب فى قطعة النسيج التى وجدتها على القاعدة الذهبية التاسعة . وقد وعدته أن أهب لك التمثال التاسع ، وقد وفيت بوعدى ، فأنا ذلك الشيخ الذى جاءك فى منامك ، فى أحلامك الثلاثة ، وهديتك إلى الذهب وتماثيل الماس ، وأعلم أنك جئت من أجل التمثال التاسع ، وستنال بغيتك إن شاء الله ، ولكن لى عندك حاجة :

قال الملك :

إنى خادم مطيع ، فمرنى بما شئت .

قال ملك الجن :

أن تحلف بكل يمين مقدس عندك أن تعود إلى جزيرتى هذه كما أتيت ، وأن تجيئنى ومعك فتاة جميلة عذراء ، كريمة الخلق ، نقية طاهرة عفيفة ، لم تبلغ من العمر أكثر من خمس عشرة سنة ، ولم يقع منها ما يخالف الفضيلة والشرف .

فأقسم الملك له ووعده أن يفى له بما طلب ثم قال :

أما جمال الفتاة عمرها فإن معرفتهما سهلة وميسورة ، وأما الأخلاق فإن السبيل إلى معرفتها شاقة ، وفوق الطاقة ، فكثيراً ما يخالف الظاهر

الباطن ، والله سبحانه هو الذى يعلم السرائر وحده ، دون أحد من خلقه .

قال ملك الجن .

صحيح ما تقول ، فإن المظاهر فى أكثر الأحيان كاذبة خداعة ، ومن المتعذر على الإنسان أن يعرف أسرار غيره ، ودخائل نفسه ، وسأعطيك شيئاً يعينك على معرفة أخلاق الفتاة وسجاياها .

ثم ناوله مرآة وقال له :

إذا وجدت الفتاة المنشودة وأردت أن تعرف أخلاقها . فانظر فى هذه المرآة ، وستجد فيها صورة الفتاة واضحة جلية ، فإن وجدت المرآة رائقة صافية فاعلم أن الفتاة كريمة الخلق ، نقية طاهرة ؛ وإن وجدت المرآة قد علتها سحابة معتمة فاعلم أن الفتاة غير كريمة الخلق ؛ واعلم بأنك إن حنثت فى يمينك ، وأخلفت وعدك أهلكت ، ولا أبالى بما لك عندى من العطف والمحبة .

قال الملك :

لن أخلف لك موعداً ، وستجدنى الخادم الوفى الأمين .

ثم استأذنه فى العودة ، ليسعى فى إحضار الفتاة المنشودة ، فأذن له ولصباح ، وسلما عليه ، ومضيا إلى شاطئ البحيرة ، فأقلهما المركب ، ونقلهما إلى الشاطئ الآخر ومضيا إلى الخدم ، فركبوا جميعاً ، ورجعوا إلى القاهرة .

٤

أخذ الملك وصباح يجوسان خلال الديار ، ويجوبان البلاد ، باحثَين عن الفتاة ، وكانا كلما عثرا على واحدة بانت صورتها فى المرآة معتمة قاتمة ، وانتهى بهما المسير إلى مدينة كبيرة عامرة ، فاستأجر فيها قصراً ، وأقاما فيه ، لعلهما يجدان فى هذه المدينة الفتاة المنشودة . وكان الملك سخيًّا كريماً ، يقيم الولائم ، ويوزع الصدقات ، ويعين المحتاجين ، ويكرم الضيوف حتى أحبه الناس ، وأثنوا عليه .

كان يسكن على مقربة من الملك أشرف إمام مسجد المدينة ، واسمه أبو بكر المؤذن ، وكان فقيراً ، لئيم النفس ، لا يحب الخير لأحد ؛ ويحسد الأغنياء على ما آتاهم الله من فضله ، ولكنه كان يخفى هذه الصفات ، ويحاول ألا يعرفها فيه أحد ، فحسد الملك أشرف على غناه وكرمه ، وثناء الناس عليه ، وإعجابهم به ، فأخذ يكيد له ، ليشفى غيظه منه ، وبعد أن فرغ الناس من صلاتهم فى المسجد قام فيهم خطيباً ناصحاً وقال :

بلغنى أنه سكن فى حينا هذا رجل غريب ، وهو ينفق الأموال ويبعثرها فيما يسميه سخاء وكرما ، وقد سألت عنه فلم أعرف له أصلا ، ولم أعرف من أين جاءه هذا المال الكثير ، الذى يبعثره ولا ينفد ، ويخيل إلىّ أنه رجل شرير لص ، جمع هذه الأموال من السرقة ،

وهرب بها إلى مدينتنا هذه ، ليستمتع بالأموال التي سرقها وهو آمن ، وقد تصنع الجود والسخاء ليخفي عن الناس أمره ، فاجتنبوه واحذروه ، فإن ملكنا إن عرف أمره ، وعرف أننا على صلة به ، اتهمنا بالتستر عليه ، وإخفاء أمره ، وحينئذ نكون شركاءه في جريمته ، وينزل بنا من العقوبة وشر الجزاء ما ينزل به . وإني أعلن أمامكم أني بريء من هذا الرجل ، وبريء من كل رجل يتصل به منكم ، وقد نصحتكم ، وما قصرت في نصحي لكم ، وقد عزمت على أن أكتب للملك عن هذا الرجل الغريب الذي لا أظنه إلا شريرًا سارقاً .

كان صباح حاضراً في المسجد ، وسمع الإمام وهو يخطب في الناس ، وكان ذا خبرة واسعة ، ومعرفة بأحوال الناس وطبائعهم ، لأن عمله في التجارة أكسبه علماً بالناس وأحوالهم ، فأدرك أن هذا الإمام ما دفعه إلى قوله هذا إلا الحسد والحقد ، فلما رجع إلى قصر سيده الملك ، وضع مائة دينار في منديل من الحرير ، وأخذه ومضى إلى الإمام في بيته ، فناوله المنديل وقال :

إن سيدي الملك أشرف يسلم عليك ، ويقول هذه هدية مني إليك ، فأرجو منك قبولها ، وإن سيدي يود من قلبه أن يتشرف بمعرفتك وصداقتك ، لما سمعه عن علمك الغزير ، وخلقك الكريم ، وفضلك العظيم .

أخذ الإمام المنديل فرحًا ، وقال لصباح :

أرجو أن تبلغه تحياتي وشكري ، وأن تنوب عني في الاعتذار إليه ،

لأنى لم أبادر إلى التشرف بالمثول بين يديه ، وسأزوره غداً ، بعد أن أصلح ما أفسدته بخطئى.

اجتمع الناس فى المسجد لصلاة الفجر فى اليوم التالى ، وبعد أن فرغوا من صلاتهم وقف الإمام خطيباً فيهم فقال :

إن الحسد جريمة منكرة ، وداء عضال ، وقل أن يخلو منه أحد من اللؤماء الأشرار ، وقد رأيت من العدل والإنصاف ، ألا أتعجل فى الحكم ، وأرفع إلى الملك أمر هذا الغريب الذى حدثتكم عنه بالأمس ، فاجتهدت فى البحث عنه والتحرى حتى اهتديت إلى الصواب فى أمره . علمت من التحرى أن الحساد كانوا قد غشونى وخدعونى وخوفونى من هذا الرجل الغريب وشره ، ونسبوا إليه السرقة ظلماً وعدوانا ، كما علمت أنه من الأمراء الأغنياء ، دوى النفوس الكريمة ، والأخلاق الفاضلة ، وإن إحسانه وكرمه وعطفه عن سجية فيه ، وهو خُلق فطر عليه .

وهكذا ضيع الذهب ما كان فى الإمام من حقد وحسد . ثم ذهب إلى بيته ، ولبس أفخر ثيابه ، ومضى إلى الملك أشرف فى قصره ، فاستقبله بالحفاوة والإجلال ، وأجلسه إليه ، وأكرمه إكراماً عظيما . طرب له الإمام ، وفرح به فرحاً كثيراً . وسأل الإمام الملك فقال :

هل ينوى سيدى الملك أن يقيم فى مدينتنا طويلا ؟ إنى رأيت الناس سعداء بك ، وهم يتمنون ألا تفارقهم .

قال الملك :

لقد جئت مدينتكم لأمر عظيم يهمنى .

قال الإمام :

نرجو أن يكون لنا يد فى معونتك ، فما هو ؟

قال :

إنى أبحث عن فتاة جميلة بلغت من العمر خمس عشرة سنة ، كريمة الخلق ، شريفة عفيفة ، نقية طاهرة ، وقد عزمت على ألا أبرح هذه المدينة حتى أجدها .

قال الإمام :

قلّ أن تجد فتاة كما تصف ، ولكن من حسن حظك أنى أعرف الفتاة التى تنشدها ، إنها ابنة وزير هذه المدينة ، وقد اعتزل الوزارة ، وانتقل بأسرته إلى ضيعته ، وهى على مقربة من مدينتنا ، فإن أردتنى سفيراً بينكما عرفته بك ، وبينت له طيب عنصرك ، وعلو منزلتك ، وسمو مقامك ، وإنى لواثق أنه سيرحب بك ، ويرضى بك زوجاً لابنته .

قال الملك :

فى التأنى السلامة ، وفى العجلة الندامة . واعلم بأنى لن أتزوج بنت الوزير إلا بعد أن أراها ، وأتيقن أنها جميلة كريمة الخلق كما سمعت ، وإن من الضرورى أن أرى وجهها ، فإنه أمارة على ما فى نفسها .

قال الإمام :

يخيل إلى أنك ذو فراسة صادقة ، وذكاء نادر ، ولا بأس من أن تمضى معى إلى بيت أبيها ، وسأحمله على أن يرضى بأن نرى ابنته .

ذهب الملك والإمام إلى بيت الوزير فى ضيعته ، وهناك عرف الإمام الوزير بالملك ، وجعل يثنى عليه ، ويصفه بكل صفة كريمة ، ثم قال له : لقد جاءك يخطب ابنتك إلى نفسه ، واشترط أن يراها قبل أن يخطبها .

وجد الوزير أنه كفء لابنته ، لأنه ملك كبير ، فقال للإمام : أرى أنه على الحق فيما طلب ، فإن الرؤية أصل للرغبة ، والرغبة أساس السعادة بين الزوجين ، فلا بأس عندى من أن يراها قبل أن يتقدم إلى خطبتها .

ثم أمر أن تحضر ابنته ، فحضرت محتشمة محتجبة ، يبدو عليها الأدب وكمال العقل والعزة ؛ فأمرها والدها أن ترفع الحجاب عن وجهها فرفعته فى استحياء ، ونظر إليها الملك ، ثم نظر فى مرآته خفية ، فماذا رأى ؟ رأى أجمل فتاة وقع عليها بصره ، ورأى المرآة نقية صافية ، حين رأى فيها صورة الفتاة ، فأيقن أنها الفتاة التى يبحث عنها ، وفرح بها فرحاً عظيما ، وخطبها من أبيها ، وطلب القاضى والشهود ، فحضروا ، وأبرم عقد الزواج .

وبعد أن انفض المجلس ، ذهب كل إلى منزله ، ورحل الملك إلى قصره بعد أن وعده الوزير أن يزوره فى قصره غداً .

زار الوزير الملك فى قصره الذى استأجره بالمدينة ، فأكرم استقباله ، ولما انتهت زيارته رجع ومعه صباح يحمل المهر ، وكثيراً من الجواهر الثمينة ، والهدايا الفاخرة . ثم جهزت الفتاة وزفت إلى الملك أشرف .

قال صباح للملك :

لقد عثرنا على الفتاة التى كنا نبحث عنها ، ولا داعى للبقاء فى هذه المدينة ، فهيا بنا نرحل إلى القاهرة ، حتى تتمكن من الوفاء بالوعد الذى أبرمته بينك وبين ملك الجن ، وأقسمت عليه .

قال الملك :

فلنرحل الآن ، فلا فائدة من البقاء فى هذه المدينة ، وقد عزمت على أن أفى بوعدى ، وإن كان جرح قلبى ، وغُصت به نفسى ، فإنى أحببت هذه الفتاة حبًّا كاد يفقدنى رشدى ، ويضلنى عن صوابى ، وإن نفسى لتحدثنى أن أذهب بها إلى قصرى فى عاصمة ملكى ، وأتوجها ملكة ، وأجلسها بجوارى على عرشى .

قال صباح :

أستحلفك بالله أن تفى بوعدك ، ولا تغضب عليك ملك الجن ، واعلم أنه أنذرك أن يقتلك إن نقضت معه عهدك ، وهو ملك جبار لا تقدر عليه ، فلا تطع نفسك وهواك ، وإنى أعتقد أنك إن وفيت بوعدك وأرضيت ملك الجن فزت بكل خير ، ونلت ما تتمناه .

قال الملك :

وأنا معك فى رأيك ، وأرجو ألا أرى الفتاة أبداً ، فإنى أخشى أن تغلبنى نفسى ، وأقع فيما خوفتنى منه .

اجتهد صُباح ، وحجبها عن الملك ، وارتحلوا إلى القاهرة ، ومنها إلى جزيرة ملك الجن ، ولما كانوا فى الجزيرة سألت الفتاة صباحاً عن هذه الأرض التى وصلوا إليها ، ثم سألت عن عاصمة مُلك الملك زوجها الذى لم تره إلا حين خطبها — هل لا تزال بعيدة ؟

قال صباح :

يا سيدتى ، إن أمرك على غير ما تفهمين ، ولا ينبغى أن يبقى خفيًّا عنك .

قالت :

وهل فى أمرى شىء غير ما جرى ؟ أليس زوجى ملكاً ؟ إنى لم أفهم غرضك ، فأكرمنى وأرحنى وبين لى الحقيقة ، وعرفنى ما خفى عنى فى أمرى :

قال صباح :

إن ملك الجن الذى نحن فى جزيرته الآن كان قد طلب من الملك أشرف فتاة فى جمالك وأخلاقك ، ومزاياك الكريمة ، وعفتك واستقامتك ؛ وقد جعل زواجه منك وسيلة لأخذك من أبيك ، وإحضارك إلى ملك الجن ، ونحن الآن ذاهبون إليه بك ، وهذا كل ما فى أمرك .

بكت الفتاة بكاء مرًّا ، وتوسلت إلى الملك وصباح أن يرجعاها إلى

أبيها ، وقالت :

ليس من مروءة الرجال أن يغشا فتاة ضعيفة مثلى ، وإن خديعتى على هذا النحو الشائن تغضب الله ولا ترضيه ، فارحما ضعفى ، واتقيا ربكما وأرجعانى إلى أهلى .

لم يفد بكاؤها ولا توسلها ، ومضيا بها إلى ملك الجن ، فلما رآها فرح واستبشر ، وقال للملك أشرف :

لقد سرنى وفاؤك بوعدك ، كما سرنى حسن اختيارك لهذه الفتاة ، ولا أظنها تقل عناك عفة واستقامة وخلقاً كريما .

ثم أخذها ، وقال للملك :

ارجع الآن إلى قصرك ، وستجد التمثال التاسع فوق قاعدته الذهبية ، فسأنقله إلى قصرك ، ولا أحملك مشقة نقله . .

فشكره أشرف ورجع هو وصباح إلى القاهرة .

رجع أشرف حزيناً كئيباً ، لأنه فارق فتاة تمكن حبها من قلبه ، ولأنه غدر بها على غير ذنب منها ، ومكث فى القاهرة يومين ثم رحل منها إلى قصره فى عاصمة ملكه .

واستقبلته أمه فرحة بعودته ، وسألته عما وقع له وما فعله فى رحلته فقص عليها ما حصل ، فتألمت من أجل الفتاة ألماً عظيما ، ثم قالت له :

هيا بنا إلى الحجرة ، لنرى التمثال التاسع ، الذى وعدك به ملك الجن

فلعله يخفف عنا بعض الألم الذى يحز فى نفوسنا من أجل هذه الفتاة الطيبة البريئة .

سار الملك وأمه ، ودخلا حجرة التماثيل ، وكانت دهشتهما عظيمة ، وفرحتهما أعظم ، حين وجدا الفتاة التى تزوجها وأحبها على القاعدة الذهبية التاسعة ، وتقدم إليها وهو يكاد يطير من الفرح وقال لها :

أهلا وسهلا ! لقد ذهب حزنى ، ونلت سعدى بقدومك .

فقالت :

لعلك أردت أن تخدعنى بزخرف قولك كما خدعتنى فى المرة الأولى .

قال :

حاشا لله أن أكون خداعاً أو كذاباً ! لقد فرض على ملك الجن أن أحضرك إليه ، وأنذرنى القتل وخراب الديار إن لم أطعه وأجبه إلى طلبه ، ولقد حدثتنى نفسى أن أعصيه وأمضى بك إلى قصرى هذا ، ولكنى خشيت أن يقتلنى ويقتلك معى ، فحملتك إليه مكرهـًا ، ودعوت الله أن يردك إلىّ ، ويسعدنى بوجودك معى ، وسلى قلبك فإنه ينبئك عن حبى إياك ، وسرورى بك .

وعززت الأم كلام ابنها فقالت :

يا بنيتى ، لقد قص علىّ ابنى قصتك فحملنى حزنين ، حزنى من أجلك ؛ لأنه فجعك فى آمالك ، وحزنى على ابنى ؛ لأنه لم يهنأ له نوم ، ولم يهدأ له بال أسفـًا عليك ، والحمد لله الذى جمعكما وأسعدنى بكما ،

فانزلى واذهبى معه إلى قصره ؛ واجلسى معه على عرشه .

فقالت :

لا أستطيع أن أتحرك .

وأحسوا أن الأرض زلزلت زلزالها ، ثم سكتت ، وظهر ملك الجن قائلا :

لعلك يا أشرف مسرور من هذا التمثال التاسع ؟

فقال :

شكراً لك أيها الملك الكريم !

وقالت أمه :

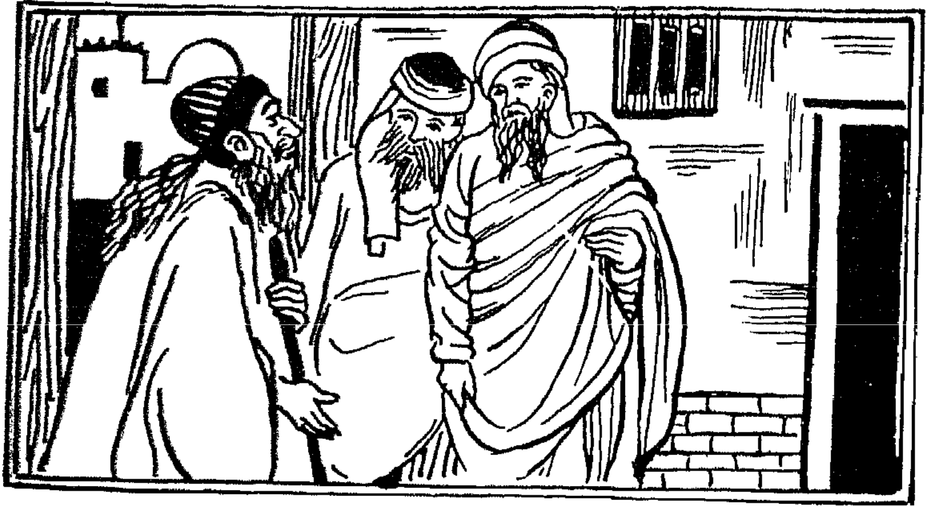
إن فضلك علينا عظيم ، وما نحن فيه من هذا النعيم والغنى من فيض إحسانك .

قال ملك الجن :

لقد أحببت ابنك ، وجعلته فى حمايتى ورعايتى ، وأحضرت له هذه الفتاة المباركة ، التى تفوق فى قيمتها جميع التماثيل السابقة ، والتفت إلى الفتاة قائلا :

انزلى إلى زوجك ، واستمتعا بحياة سعيدة ، كلها خير وبركة ، ثم اختفى .

نزلت الفتاة فرحة ، وذهبت إلى قصر زوجها ، وعاشت هذه الأسرة عيشة سعيدة هانئة .



الرشيد والرجال الثلاثة

١

أمر الرشيد جعفرًا البرمكى وزيره الأكبر أن يأتيه ذات يوم مبكراً ليتجولا فى بغداد متنكرين ، ليقفا على مبلغ صلاحية النظام الجديد الذى وضعه هارون الرشيد للشرطة .

حضر الوزير جعفر فى اليوم الذى اتفقا عليه مبكراً ، ودخل على الرشيد ، فوجده ساهماً مطرقاً ، كأن شيئاً عظيماً شغله بالتفكير فيه .

فقال جعفر :

حفظ الله أمير المؤمنين وعافاه ، أراك ساهماً مفكراً . فهل حدث شىء أهمّك وشغلك ؟

قال الرشيد :

لم يحدث شيء ، ولكنى أحس همًّا ملأ صدرى ، وقلقاً حرمنى الراحة والاطمئنان ! ولا أشعر بمرض نزل بى ، ولا بوجع تألم منه عضو من أعضائى ، ولا أدرى سبباً لتلك الحال التى ألمت بى .

قال جعفر :

تلك سحابة عابرة . لحادثة وقعت وكانت مؤلمة ، مرت بالعقل الباطن . تبدو آثارها ، ولا يعرف كنهها ، وعما قليل تزول . وربما كان نوم أمير المؤمنين الليلة خفيفاً غير ثقيل ولا عميق ، وربما كان هضم الطعام بطيئاً غير نشيط ، وعلى أى وجه فتلك حالة تمر بالإنسان أحياناً ولا تلبث أن تزول . والتفكير فيها متعب شاغل ، ولا علاج لها إلا الانشغال عنها بمزاولة أى عمل من الأعمال ، وخير الأعمال فى تلك الحال ما كان شهيًّا سارًّا ، محبباً إلى النفس ، يريح الجسم وينتعش به . ومن فضل الله على أمير المؤمنين أن جعل عمله اليوم مريحاً شهيًّا ، نافعاً قيّماً ؛ فهو مرح ونزهة . واطمئنان على الرعية .

قال الرشيد :

وما ذاك يا جعفر ؟

قال جعفر :

لقد أمرتنى أن نتجول اليوم فى المدينة متنكرين ، لنقف على مدى صلاح النظام الجديد الذى وضعته للشرطة ، ولهذا بكرت فى الحضور

إلى أمير المؤمنين .

قال الرشيد :

أحسنت يا جعفر وأصبت ، فقم معى إلى حجرة الملابس التى أعددناها للتنكر ، لنختار الزى الذى نختفى فيه .

فنهض جعفر ، وصحب الرشيد إلى تلك الحجرة ، وبعد قليل رجعا منها فى زى التجار .

خرج الرشيد وجعفر وحدهما ، من باب السر الخلفى ، المطل على الحقول والمزارع ، وليس معهما أحد ، ولم يشعر بخروجهما متنكرين إنسان ؛ ومشيا حتى بعدا من قصر الرشيد ، ثم قصدا نهر دجلة ، فلما كانا على شاطئه ركبا أول مركب ظهر لهما ، وعبرا به النهر إلى الشاطئ الآخر ، ثم سارا بحذاء النهر حتى وصلا إلى جسر فوقه ، فمشيا عليه ، فوجدا فى آخره رجلا عجوزاً أعمى واقفاً ، قد انحنى متحاملا على عصاه الغليظة ، وهو يسأل الناس ويستجديهم ، ويطلب منهم عطاء وصدقة ، فأقبل الرشيد عليه ، ووضع فى يده ديناراً ، وأسرع العجوز فأمسك ثوب الرشيد ، وتشبث به وقال :

أيها المحسن الكريم ، لا تبرح مكانك حتى تضربنى على رأسى بيدك ضربة خفيفة أو ثقيلة .

فوقف الرشيد ينظر إلى الرجل ، وهو فى عجب من قوله وشكله .

قال العجوز :

لا تعجب ، ولا تخالف ما طلبته منك ، مهما يكن أمرك ومنزلتك ، فلست بتارك ثوبك ، ولا بمخل سبيلك ، حتى تضربني على رأسي ضربة بيدك ، وما أنت بظالم ولا جائر ، فأنا المضروب ، وأنا الذي أطلب ضربي ، وقد طابت نفسي به ؛ لأني أستحق الضرب وأكثر من الضرب ، وإن كنت لا تضربني تلك الضربة فخذ دينارك وامض إلى سبيلك ، فقد حلفت ألا آخذ من أحد صدقة إلا إذا ضربني على رأسي بيده ضربة .

قال الرشيد :

إن العلماء يعظوننا ويعلموننا ويقولون : لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ، فكيف تطلب مني أن أبطل صدقتي بضربك ؟ !

قال العجوز :

إن ضربك لي صدقة أخرى تفوق دينارك .

ثم مد يده الأخرى بالدينار وقال :

وهذا دينارك ، إما ضربت ، وإما أخذته وانصرفت .

أرجأ الرشيد معرفة ما خفي من أمر هذا الرجل السائل ، وضربه ضربة خفيفة ، ومشى هو وجعفر ، ولما بعدا قليلا قال الرشيد :

ارجع إلى هذا العجوز السائل ، وعرفه أني أنا الخليفة ، ومره أن يأتيني غداً في مجلسي بعد صلاة العصر ، وإني في انتظارك هنا حتى تعود .

رجع الوزير إلى العجوز وناوله ما جادت به نفسه ، وضربه على

رأسه الضربة ، ثم قال له :

اسمع يا رجل ، وافهم ما أقول .

قال العجوز :

نعم يا سيدى .

قال جعفر :

إن الرشيد أمير المؤمنين هو الذى أعطاك الدينار الآن ، وهو الذى أمسكت ثيابه ، وحاورك وجادلك فيما طلبته من ضرباك ، وإنه يأمرك أن تذهب إليه غداً فى مجلسه بعد صلاة العصر ، واعلم أنك إن خالفته أو هربت أتينا بك وإن غصت إلى الأرض السابعة .

قال العجوز : سمعاً وطاعة .

رجع جعفر إلى الرشيد ، ومضيا فى طريقهما حتى كانا فى ساحة واسعة بالمدينة ، ازدحم الناس حولها ، وكان فى الساحة شاب وجيه وسيم ، قد لبس أفخر الثياب ، وركب فرساً ، وهو يعلو بها فى الساحة علواً سريعاً مرهقاً ، وقد نزل عليها بسوط متين فى يده ، يضربها ضرباً موجعاً متتابعاً ، ويخزها بالركاب وخزاً وحشياً قاسياً ، فكانت الفرس مبهورة النفس ، غارقة من الضرب والوخز والجرى فى عرقها ودمها ، والناس من حوله فى تأفف واستنكار وضجر :

ما هذه القسوة ؟ ! هذه وحشية ! ! شاب مجنون ! ! شاب طائش ! ! مسكينة هذه الفرس ! !

وسأل الرشيد الناس عن هذا الشاب وعن عمله هذا فقيل له :

لا نعلم شيئاً ، ولكنا وجدنا هذا الشاب منذ أيام قد بدأ عمله هذا ، ودأب عليه ، فهو يأتى كل يوم إلى هذه الساحة فى هذا الموعد ، ويفعل ما تراه الآن ، ولا نعرف شيئاً أكثر من ذلك .

ترك الرشيد الساحة ومعه جعفر ومشيا فى طريقهما ، وأمره الرشيد أن يكلف الجند بالحضور إلى هذه الساحة فى هذا الوقت من الغد ، ويقبضوا على الشاب ، ويحضروه فى مجلسه بعد صلاة العصر

فقال جعفر : سمعاً وطاعة .

ثم دخلا فى شارع من شوارع المدينة فوجدا فى وسطه من الجانب الأيمن قصراً منيفاً جميلا ، فظن الرشيد أنه لأحد الأمراء ، أو كبار الأعيان فى المدينة ، فسأل جعفراً عن صاحبه ، فقال :

لا أدرى ، ولم أر هذا القصر منذ شهور .

فأمره أن يسأل الجيران عن صاحبه ، فتخلف الوزير وسأل الجيران فقيل له :

إن هذا القصر لرجل حَبّال ، يصنع الحبال ويبيعها ، وكان فقيراً ، يحصل على الكفاف من رزقه ، من هذه الصنعة ، ولكنه أثرى واغتنى فجأة ، وبنى هذا القصر الكبير ، وسكن فيه ، ولا ندرى من أين جاءته هذه الأموال ، وكيف أثرى واغتنى .

وأدرك الوزير الرشيد وألقى فى أذنيه ما سمع ، فأمره أن يأتيه به فى

مجلسه بعد صلاة العصر من الغد ، مع الشحاذ والشاب الوجيه صاحب الفرس.

فقال جعفر : سمعاً وطاعة .

وبعد صلاة العصر من الغد جلس الرشيد فى مقصورته التى يستقبل فيها من يريد استقباله ، وجاءه جعفر ومعه الرجال الثلاثة : الشحاذ العجوز ، والشاب الوجيه ، والحبال الغنى ، فوقفوا أمامه فى أدب و إجلال خاشعين .

٢

سأل الرشيد العجوز الأعمى عن اسمه فقال :

اسمى يا مولاى بابا عبد الله .

قال الرشيد :

إن معاملتاك للمتصدقين علياك معاملة سيئة شاذة ، فكيف يتقدمون إلياك مختارين بالإحسان إلياك ابتغاء الثواب والمغفرة ، وأنت ترغمهم على أن يضربوك ويسيئوا إلياك ؟ ! هل يصح أن تجعل شكرك لهم على إحسانهم إلياك أن توقعهم فى الإثم ، وتحملهم وزرك ؟ ! إنى أرجأت الفصل فى أمرك حتى تحضر أمامى ، وتبين لى ما خفى علينا من السر والحكمة فى عملك هذا ، وقد أحضرتك من أجل ذلك ، فاقصص

علينا حكايتك غير خائف ولا وجل ، فلن تجد فى مجلسى هذا إلا العدل والرحمة .

قال بابا عبد الله :

أرجو من مولاى الصفح والمغفرة أولا عما وقع منى بالأمس ، فما كنت أعلم أن الذى تصدق على أمير المؤمنين .

قال الرشيد :

لا بأس عليك ، فاقصص قصتك وأنت آمن ، فلن تظلم فى مجلسى أبداً .

قال بابا عبد الله :

إنى ما طلبت من المتصدقين ضربى إلا لأنى أستحقه ، ولو اجتمع أهل الأرض وضربونى ما كان ضربهم بجانب ذنبى شيئاً مذكوراً ، وسيتبين هذا لمولاى من قصتى .

قال الرشيد : اقصص قصتك .

قال بابا عبد الله :

ولدت فى بغداد ، ومات أبواى أحدهما بعد الآخر ، قبل أن أبلغ من العمر عشرين عاماً ، وتركا لى مالا كثيراً ، لم تخدعنى كثرة المال الذى ورثته ، ولم يركبنى على حداثة سنى غرور الشباب وطيشه ، فلم أضيع شيئاً من المال فى نزعات الهوى ونزغات الشيطان ، ولكنى حرصت عليه حرص البخلاء ، وسعيت فى إنمائه كل سعى شريف

رابح ، حتى كثر ونما ، وكان لى ثمانون جملا قويًّا ، يكتريها تجار القوافل ، وأنال منها ربحاً عظيماً .

وذات مرة رجعت بجمالى بعد أن أفرغت أحمالها ، فمررت على مرعى ذى كلأ كثير ، فأرسلت الجمال ترعى وتأكل ، وجلست على صخرة أشرف عليها وأرعاها ، وبينما أنا جالس مر بى درويش فرآنى ، وجلس بالقرب منى ليستريح ، فسألته عن شأنه ، فعرفت أنه درويش عابر ، ووجهته مدينة البصرة ، وسألنى عن شأنى فأجبته بما أنا فيه . ثم أخرج كل منا ما عنده من الطعام ، ووضعناه بين أيدينا ، ثم أكلنا معاً حتى شبعنا ، ثم أخذنا ندور بالحديث على كثير من الشئون حتى قال الدرويش :

إننى أعرف كنزاً من الذهب والجواهر ، لو أخذت منه وحملت جمالك الثمانين ما تطيق حمله لخيل إليك أنه ما نقص شيئاً ،وإن مكانه قريب من هذا المرعى .

أعمانى حب المال ، وجشعى فى طلبه وجمعه ، ففرحت فرحاً عظيماً ، وصدقت الدرويش ، وما خالجنى شك فى قوله ، لأن الجشع إذا اشتد واستولى على النفس صور الخيال حقيقة واقعة ؛ وقلت له :

يبدو لى أنك عف زاهد فى الدنيا ، لأنى أراك تخبرنى بالكنز ، وكان فى استطاعتك أن تحتفظ بخبره ، وتستأثر به ، دون أن يشاركك أحد فيه ، ولكنك رجل تقى عفيف النفس كريم الخلق ، تحب للناس

ما تحب لنفسك ، وربما آثرتهم بالخير على نفسك ، فهيا بنا إلى الكنز ، لنحمل الجمال منه ما تطيق حمله ، ولك جمل واحد من الثمانين ، يحمل ما شئت من ذهب وجواهر ، لأنك دللتني عليه ، ولا غرابة يا مولاى فى أنى جعلت له جملا واحداً ، وهو صاحب الكنز والدال عليه ، فقد استولى الجشع والطمع على نفسى حتى خيل إلى أن الجمل الواحد كثير على الدرويش ، بل خيل إلى أنه لا يستحقه ، ولا ينبغى أن يأخذ من كنزه شيئاً .

عرف الدرويش من قولى هذا أنى طماع شره ، فلم يتأثر ولم يجزع ، وقال فى هدوء من نفسه ، ولين من قوله :

يا أخى ، أظنك معى فى أن ما جعلته لى من الكنز أقل بكثير مما أستحقه ، وأنت تعلم أنه كنزى وأنا صاحبه ، وفى استطاعتى ألا أطلعك عليه ، وفى إمكانى أن أستأثر به ، وأخص به نفسى ، ولكنى رجل أحب الخير للناس ، وأحرص على صداقتهم وإخائهم ، وذلك ما دعانى إلى أن أخبرك به ، لأن السعيد من الناس من نفع وانتفع ، وسأعرض عليك رأيى ، فانظر فيه وتدبره ، فإما قبلته ، وإما رفضته .

فقلت له :

هات ما عندك يا أخى .

فقال :

سأدلك على الكنز . ونحمل الجمال الثمانين منه ما تطيق حمله . على أن تأخذ نصفها ؛ أربعين جملا محملة . وآخذ أنا نصفها أربعين جملا محملة ، وتستطيع أنت بعد ذلك أن تشترى بيسير من الذهب أربعين جملا أو أكثر . ثم يمضى كل منا بنصيبه إلى حيث شاء ؛ أليست هذه قسمة عادلة مريحة ، لا ظلم فيها ولا تحيز ؟ !

ما كان يخالجنى شك يا مولاى فى أن هذه القسمة عدل لا جور فيها ، ومع أنى سأربح منها ذهباً وجواهر لم أكن أحلم بها — كنت مع هذا — أرى أن النصف الذى أخذه الدرويش خسارة أصابتنى وآلمتنى . ولكنى وجدتنى مضطرا إلى أن أقبل تلك القسمة ، حتى لا يفلت من يدى نصيبى من الكنز ، فأموت أسفاً عليه وحسرة . فقلت له :

رضيت ! فهيا بنا إلى الكنز . ولك نصف الجمال . ولى نصفها .

جمعت الجمال وقطرتها وسرنا حتى كنا أمام مفازة ضيقة ، فدخلناها إلى واد فسيح يحيط به جبلان ، وجعلنا نمشى حتى انتهينا إلى آخر الوادى ، وصار الجبلان المحيطان بالوادى على شكل نصف دائرة ، وكانا مرتفعين ارتفاعاً عظيماً . ومنحدرهما صعب لا يستطيع أحد أن ينزل فيه ، وبهذا اطمأنت نفوسنا وأمنا ، ولم نخف أن يعدو علينا أو يباغتنا أحد . وقال الدرويش :

أنخ جمالك هنا ، واعقلها ، فقد وصلنا .

ففعلت ما أمر به وجلسنا . ثم أمرنى فجمعت له بعضاً من الحشيش

والكلأ الجاف . فأشعل فيه النار ، ثم أخرج من جيبه شيئاً ووضعه على النار . وأخذ يتلو ويقول قولا لا أفهمه ولا أتبينه . فانتشر دخان وجعل يفرقه بيده . ويدفعه هنا وهناك ، وبعد قليل رأيت الصخر الذى أمامنا قد انفتح فيه باب فدخلناه . ووجدنا خلفه فجوة عميقة واسعة ، قام فيها قصر فخم منحوت من الصخر ، لا يصدق أحد أنه من عمل الإنسان . ولابد أن يكون قد بناه الجن فى وقت من الأوقات ، ووجدت الذهب يتلألأ أمامى ، فانكببت عليه وهجمت هجوم الذئب الجائع على فريسته . وجعلت أملأ الزكائب واحدة بعد واحدة ، وهو ينصحنى بالتريث والإبطاء والثبات ، ولكنى ما كنت أستمع له ، حتى حملت الجمال الثمانين ، ومن العجب أن الكنز تراءى لى بعد ذلك كأننا لم نأخذ منه شيئاً ، وقبل أن نخرج منه رأيت الدرويش ذهب إلى جرة من الجرار وأخذ منها صندوقاً صغيراً خشبيًّا ووضعه فى جيبه فسألته عنه فقال : إن فيه دهناً نافعاً ، ثم خرجنا وأعاد إشعال النار ، ثم وضع عليها شيئاً معه ، وتلا عليها ما تلا كما فعل أولا ، فأغلق باب الكنز وعاد إلى ما كان عليه كأنه صخرة مصمتة لا أثر فيها . ثم سرنا حتى خرجنا من مدخل الوادى ، ولما وصلنا إلى مفترق الطرق أخذ أربعين جملا ومضى فى طريقه . وأخذت أربعين جملا وسرت فى طريقى .

وما سرت قليلا حتى عاودنى الطمع والشره . وقلت فى نفسى :

هذا درويش زاهد ، فماذا يصنع بهذا المال الكثير ؟ وعلى فرض أنه

محتاج إلى المال ، فعنده الكنز ، ومن اليسير عليه أن يأخذ منه ما يشاء متى شاء . . ! فأوقفت جمالى ، وجريت خلفه وناديته ، فوقف وانتظرنى ، فلما كنت عنده قلت له :

يا أخى ! لقد تذكرت أنك درويش زاهد ، وأن المال يشغلك عن العبادة ، فأحببت أن أصون لك زهدك وورعك . وجئتك لأعرض عليك رأياً رأيته .

قال : الدرويش : وما هو ؟

قلت :

أرى أن آخذ من نصيبك عشرة جمال ، ويكفيك الثلاثون .

فابتسم الدرويش وقال :

أظنك على الحق فيما رأيت ، فخذ ما شئت من الجمال .

فاخترت يا مولاى منها عشرة وسقتها أمامى ، واندفعت بها فى طريق حتى قطرتها فى جمالى الأربعين .

كان اقتناع الدرويش برأيي ، وانصياعه لى ، فى يسر وسهولة من أكبر العوامل التى أشعلت الطمع فى نفسى . وقلت :

ما دام الدرويش سهل الانقياد ، فما الذى يمنعنى من أن أطلب منه عشرة جمال ثانية ؟

وانطلقت مسرعاً خلفه وناديته ، فوقف حتى أدركته ، فلقينى بابتسامته الطويلة . وقال :

ماذا تريد أخي ؟

فقلت له :

تذكرت أن الطريق أمامك طويل ومخيف ، وأنك لا تستطيع لقاء اللصوص والأشرار إذا سطوا عليك ، فإنك رجل صالح زاهد ، لا تعرف قتالا ولا دفاعاً . ولكني رجل شاب قوى مجرب مسلح ، تخشاني اللصوص وتهابني ، فجئت إليك لأخفف عنك عبء هذا المال ومشقة المحافظة عليه . فلو أعطيتني عشرة جمال أخرى كان ذلك خيراً لك .

فابتسم وقال :

خذ ما شئت يا أخي .

فأخذت عشرة جمال وشكرته ، وسقتها أمامى حتى قطرتها فى جمالى الخمسين .

لعل شيئاً يدور بخلدك الآن يا مولاى ، وهو أن أقنع بعد هذا وأسكت . ولكن نفسى الأمارة بالسوء ما سكنت ، وألح جشعها وحبها للمال أن أطمع ولا أقنع ، فرجعت إلى الدرويش وجعلت أرقيه بمعسول القول حتى أخذت منه الجمال العشرين الباقية ، وطابت نفسه أن يرجع هو صفر اليدين . فشكرته . وقبلته فى جبينه . وأثنيت عليه ثناء جميلا ، ولكنه قال لى قبل أن أفارقه :

هذا المال الذى أخذته لأخيك الإنسان حق فيه . فلا تحبسه عن غيرك ، وأسعد به إخوانك وأهلك ، بإنفاقه فى وجه البر ، واعلم أن الله

الذى أغناك ، قادر على أن يفقرك . وأن الله يبتلى الأغنياء بالغنى وكثرة المال ، فإن هم أدوا منها حقوق الله والناس أثابهم . وبارك لهم فيما آتاهم ؛ وإن بخلوا بما آتاهم الله من فضله عاقبهم بالحرمان فى الدنيا ، والنار فى الآخرة ، تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، ويقال لهم : هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون .

قال لى هذا القول يا مولاى والبشر لا يفارق وجهه ، والابتسامة العذبة لا تزول عن شفتيه .

تركت يا مولاى أخى الدرويش والفرح يملأ نفسى والمستقبل السعيد ينتظرنى ، وتراءت أمام عينى القصور الشامخة ، والجوارى والخدم ، والجياد المطهمة . والزوجة الجميلة ، والبنون والبنات ، والهيبة والاحترام ، والعز والجـــاه والسلطان ، وغرقت من النشوة فى حلم لذيذ سيحققه هذا المال .

ولما وصلت إلى الجمال ساورنى شيطان الطمع . فأخذ يوسوس فى صدرى ويقول : لقد ضحك عليك الدرويش فأعطاك الذهب والجواهر ، واستأثر هو بالصندوق الخشبى النافع . ولابد أن يفوق نفعه هذا المال وأضعافه ، وهذا الذى جعله يعطيك المال جميعه ، طيبة بذلك نفسه ، فإن كنت تريد السعادة فارجع إليه ؛ وخذ منه الصندوق ولو غصباً .

ولم أستطع يا مولاى أن أتغلب على شيطان الجشع فانقلبت مسرعاً

إلى الدرويش وقلت له :

إنك تقي زاهد . لا يليق بك التطيب بالدهن وغيره ، ولا أرى في أخذك الصندوق خيراً لك ، فأعطنيه لأنتفع بدهنه ، ولك الشكر العظيم .

فأخرج الصندوق من جيبه ، ودفعه إلى وقال : أنت أخي ، ولا أمنع عنك شيئاً تريده . ولو طلبت مني جبتي لأعطيتكها ، وأعطاني الصندوق فأخذته منه وشكرته . وقلت له :

إنك لصديق حميم ، وأخ كريم ، ثم فتحت الصندوق فوجدت فيه دهناً فقلت للدرويش :

لا إخالك تبخل على أخيك ببيان فائدة هذا الدهن . وكيف أستعمله وأنتفع به .

فقال الدرويش :

إذا وضعت قليلا منه حولى عينك اليسرى ، وفوق جفنها ، ثم فتحتها رأيت بها ما اختبأ عن الناس من كنوز الأرض .

فرجوت منه أن يضع حول عيني اليسرى وفوق جفنها من الدهن ما شاء ، ففعل . وفتحت عيني فرأيت كنوزاً لا حصر لها ، فزاد فرحي بالصندوق ؛ وقلت في نفسي لو فعلت بعيني اليمنى ما فعلت باليسرى لرأيت كنوزاً أكثر ؛ وحينئذ طلبت منه أن يفعل بعيني اليمنى ما فعله باليسرى . فقال :

إن وضع شيء منه حول عينك اليمنى وفوق جفنها أصابك العمى .



الدرويش يدهن لبابا على عينه اليسرى

فقلت له :

كيف يكون ذلك ؟ إنى لا أكاد أصدق ! إن شيئاً واحداً يجعلنى أبصر كنوز الأرض ، وهو نفسه يفقدنى البصر ويعمينى ! ؟ !

وألححت عليه كثيراً أن يضع منه فوق عينى اليمنى وهو يمتنع ولا يرضى . حتى قلت له :

إن عميت فلاذنب لك . ولا تثريب عليك . ولابد من ذلك .

فلم يجد الدرويش مفرًّا من طاعتى ، والنزول على إرادتى وأمرى ، ووضع قليلا منه حول عينى اليمنى وفوق جفنها ، ثم فتحت عينى فلم أبصر شيئاً . فحزنت حزناً أليماً وقلت صارخاً :

أيها الدرويش المنحوس ! لقد عميتُ كما قلتَ . وما أنت بملوم ، لقد أعمانى جشعى وطمعى . والارتياب فى نصح أخى . وإنى أستحلفك بالله أن ترد إلى بصرى . فإن عندك من العلم ما تقدر به على ذلك .

فقال الدرويش :

إن الله القادر هو الذى يستطيع أن يرد إليك بصرك ، وقد فقدته بطمعك ، أما المال والجمال فإنى سأذهب بها وأنفقها جميعها فى وجوه الخير والبر ، وأما أنت فلست أهلا للخير والبر .

ثم تركنى وأخذ الجمال والمال ومضى ، ومنّ هو علىّ بأن دل قافلة سائرة على الطريق الذى تركنى فيه لتسلكه إلى بغداد ، فلما مرت بى ؛ رثت لحالى ، ونقلتنى معها إلى بغداد . فوقفت يا مولاى أستجدى

الناس . وحلفت ألا أترك متصدقاً حتى يضربنى على رأسى . تكفيراً عَن ذنبي ، وتأديباً لى . فقد أصبحت بسبب شراهتى وطمعى سائلا محروماً ، بعد أن كنت فى صفوف الأمراء والأعيان .

قال الرشيد :

إن ذنبك لعظيم ، ولكن الله يغفر الذنوب جميعاً . فأقلع عن تعذيب نفسك ، وتب إلى الله ، واقض أوقاتك فى الصلاة والعبادة ، ونفع الناس ما استطعت إلى ذلك سبيلا . وسأكفيك مشقة السعى إلى رزقك . فقد جعلت لك من مالى ما يكفل لك عيشة راضية هنيئة .

فشكر له العجوز ودعا له بكل خير .

٣

التفت الرشيد بعد ذلك إلى الرجل الغنى الوجيه الذى كان يرهق فرسه بالجرى فى الميدان ، ويوجعها ضرباً بالسوط ، ووخزاً بالركاب كل يوم على مشهد من الناس ، حتى تخور قواها ، وتشرف على الموت ، وسأله عن اسمه .

قال الرجل :

اسمى نعمان .

قال الرشيد : يا نعمان ! شاهدت فى حياتى خيلا كثيرة يدربها

أصحابها ، وعالجت أنا نفسى تدريب كثير منها ، ولكنى ما رأيت فى حياتى مدرباً قاسياً فظّاً غليظ القلب مثلك . وما رأيت فرساً لقيت من ضروب التعذيب وقساوة الوحشية مثل فرسك . . .

يا نعمان ! لقد كنت فى معاملة فرسك وحشاً متحجر القلب : لا تعرف شفقة ولا رحمة . وكنت تفعل ذلك على ملأ من الناس الذين كانوا يئنون من الألم ، ويتململون من الحزن على هذا الحيوان الأعجم ، الذى لا ينطق ولا يتكلم ، والذى لا يستطيع أن يعلن استغاثته وشكواه ؛ ويقول للناس : واغوثاه ! ! . . .

يا نعمان ! لقد كنت أنا بالأمس فيهم . ونزل بى من الألم والحزن فوق ما نزل بهم . وقد هممت أن أخفف عن نفسى ، ما أثقلها من ألمى وغمى ، فآمرك بالكف عن فعلك ، والارعواء عن قسوتك ووحشيتك . ولكنى آثرت الصبر والإرجاء . إلى أن تحضر أمامى ، فى هذا الموعد من يومنا هذا . لأتبين حقيقة أمرك . ولأعرف السبب الذى دفعك إلى أن تجاوز الحد فى قسوتك .

يا نعمان ! إن فراستى تحدثنى أنك شاب كريم الخلق ، رحب الصدر ، رحيم القلب ، رقيق العاطفة . . . وأن هناك أسباباً قوية أرغمتك على أن تفعل فعلتك ، وتضطهد فرسك هذا الاضطهاد الصارخ ، الذى ضج من بشاعته كل كبير وصغير ، سواء أكان شاهداً أم غائباً ، ففزع لمرآه من فزع . وجزع لمسمعه من سمع .

وقد أحضرتك اليوم أمامى ، لتبين لى تلك الأسباب ، وتذكر ما خفى منها واستتر ، فاقصص علينا قصتك . ولا تطو شيئاً منها فى نفسك ، عَظُمَ أو صغر .

* * *

أحس نعمان من نفسه حرجاً وخجلا ، وضيقاً وألماً ، وبدت آثار ذلك على وجهه وجسده : فاصفر لونه ، وهرب دمه ، وانقبضت أساريره ، وارتعشت أصابعه ، وضعفت رجلاه عن حمله ، وجف ريقه فلا يكاد يسيغه ، وشرع يحكى قصته ، ولكن القول لم يسعفه ، وترددت الألفاظ فى حلقه ، فهو لا ينطق ولا يتكلم ، لبشاعة ما وقع له ، وجزعه من سرده على مسمع أمير المؤمنين .

أدرك الخليفة بذكائه وفراسته ارتباك نعمان وحرجه ، وظن أن ارتباكه من هيبة مجلسه ، أو لأن فى قصته شيئاً يود أن يخفيه ، ولا يؤذى بذكره مسامع الخليفة ، فهو من أجله فى اضطراب وحيرة . . ! فأمهله حتى يستجمع ثباته ، ثم شجعه وقال له :

كأنك يا نعمان أمام أحب الناس إليك ، وأعزهم عندك ، ومن تخصهم بسرك ، ودخيلة نفسك ، ولا تخف عقوبة ، فقد غفرت لك ذنبك ، وعفوت عما عسى أن يكون من خطئك ، فاسرد علينا قصتك ، ولا تكتم شيئاً منها وإن عظم ، فإنك آمن ، ولا خوف عليك .

بدأ نعمان يتكلم فقال :

يا أمير المؤمنين ، لا أقول إنى من أكرم الناس خلقاً ، وأطيبهم نفساً . . . ولكنى أستطيع أن أقول إنى رجل أطعت ربى ، واستقمت فى أمرى ، وأخلصت لأميرى ، فلم تجترح يداى إثماً ، ولم أرتكب ذنباً يعاقب عليه القانون، وما بدا منى فى معاملة الفرس من القسوة والغلظة فسيبين من قصتى أنه الحق الذى لا مرية فيه ، بل سيبين لمولاى أن الحق فيما هو أقسى مما وقع منى وأبشع ، ولهذا فإنى لا أحرج صدر مولاى بالتغاضى عن ذنب اقترفته ، ولكنى أرجو منه العدل الذى يرتضيه ، والذى يجرى دائماً على يديه .

ولدت يا مولاى من أبوين متوسطى الحال ، كريمى الخلق ؛ يأتيهما الرزق رغداً من تجارة والدى ، وربيانى على الاستقامة والخلق القويم ، وورثت عنهما المال والتجارة ، فسرت فى تجارة والدى سيرته ، أختار البضاعة الصالحة ، ولا أغش فى بيعى ، ولا أغالى فى ربحى ، ولا يضيق صدرى من زبائنى . . . فكثر مالى وزاد ، ولم أرهقه بالتبذير والإسراف ، حتى أثريت واغتنيت ، وعشت فى بسطة من الرزق وغبطة ، وما كان ينقصنى إلا الزوجة الصالحة ، التى أسكن إليها ، وأضع أثقال الحياة عندها ، وأجد فيها العون على مصاعب الحياة ، ومتاعب العمل . . . ووصف الأهل والإخوان لى بنتاً جميلة ، اسمها أمينة ، وشاء الله أن أتزوجها ، فتزوجتها ، وظننت أنى وجدت الزوجة الجميلة الصالحة التى أرتضيها ، والتى ستكون مشرق هناءتى وراحتى فى حياتى .

أعد الخدم المائدة يا مولاى ، وكانت حافلة بصنوف الطعام الشهى الفاخر . وجلست أنا وزوجتى أمينة على المائدة لنأكل هنيئاً .

وأدهشنى يا مولاى أنها لم تأكل كما كنت آكل . وكما يأكل أمثالها . وكما يأكل الناس . . ! لقد أخرجت من حقيبة صغيرة معها ملقطاً صغيراً . وجعلت تنقر به حبة الأرز وتأكلها ، حبة فى إثر حبة . وما مدت يدها إلى بقية الطعام الذى حفلت بصنوفه المائدة . وتعددت ألوانه الشهية اللذيذة .

طريقة فى أكل الأرز ما رأيتها يا مولاى وما سمعت عنها ، فقلت لها :

كلى يا أمينة الأرز بالملعقة .

ثم ابتسمت فى وجهها وقلت :

لعلك تريدين أن تعدى حبات الأرز التى تأكلين ! أو لعلك تريدين بذلك القصد فى الأكل . ومجانبة الإسراف . حتى لا ينفد المال ونفتقر ! ! إننى يا أمينة أحب أن تأكلى كما آكل ، فإن الفقر لا يأتينا أبداً من قِبل المائدة . وأحب شىء إلى نفسى أن تستمتعى بالشبع من هذا الطعام .

ما وجدت منها يا مولاى طاعة ولا مجاملة ، وما أجابتنى بكلمة واحدة . ولكنها أبطأت فى التقاط حبات الأرز بملقطها ، وتناولت من الخبز فتاتة كأنها حبة من حبات الأرز .

دارت بى الدنيا ، وسرت بخيالى من مشرقها إلى مغربها . لعلى أجد

مخرجاً من هذه الدهشة . فقلت فى نفسى :

لعل الخجل حبسها ، لأنها لم تألف الأكل مع الرجال قبل زواجها ! !

لعل أهلها نصحوا لها بالتعفف فى الأيام الأولى من حياة الزوجية ، ثم تغالت ففعلت ما فعلت ! !

لعلها أكلت وحدها قبل أن أحضر ، وظنت أنها إن أخبرتنى أغضبتنى ! !

لعلها من شدة حيائها عازمة على أن تأكل وحدها بعد خروجى من البيت ! !

طاف بى الخيال يا مولاى على هذه المعاذير ، وأنا هادئ ثابت ، آكل كعادتى ، حتى شبعت . وخرجت من المنزل ، دون أن يبدو علىّ أو يقع منى ما يدل على دهشتى من تلك الحال التى لم أرها ولم أسمع بها من قبل . وقلت فى نفسى : لعلها لن تتكرر .

استمرت الحال على هذا يومين كاملين ، وجاء اليوم الثالث فما تغيرت ، فقلت فى نفسى :

لايمكن أن تعيش فتاة طويلة ، مملوءة الجسم ، رائعة الجمال . . مثل أمينة على حبات الأرز التى تلتقطها ، ولا تعدو فى كل مرة عشر حبات ، وأيقنت يا مولاى أن فى الأمر سرًّا ولكنى لا أدرى به .

من الواجب علىّ حينئذ يا مولاى ألا أقف أمام هذا السر ساكتاً ، وأصبح من المحتوم علىّ كرجل يجب عليه أن يقف على أسرار بيته ،

أن أتبين وأبحث ، ولكن فى خفية خفيّة .

سرت فى بيتى على سجيتى ، غير مهتم بتلك الحالة ، وكأنها لم تكن . ولم يبد منى ما يدل على أنها تشغل بالى فى قليل أو كثير ، ولكنى حرصت على أن أرقب زوجتى ، وأترصد حركاتها وسكناتها ، وذهابها وجيئتها ، دون أن أشعرها أنها فى مكان المراقبة من نفسى .

جاء الليل ، وأوينا فيه إلى فراشنا ، وتناومت ، ولكن لم يزر عينى سنة ولا نوم . وبعد أكثر من ساعة نظرت إلى زوجتى وهى بجوارى ، فوجدتنى غارقاً فى نوم عميق كما زعمت . ولكى تتأكد من أنى نائم نادتنى بصوت خفيض ، فما أجبتها ، فأيقنت بما زعمت ، ونهضت من الفراش فى هدوء وخفة ، ولبست ثيابها . وانسلت من الغرفة انسلال الحية . ثم سارت نحو السلم ، ونزلت فى بطء ثقيل حتى لا تحدث حركة .

قمت فى أثرها بعد أن لبست ملابسى فى سرعة عاجلة ، وخرجت من باب المنزل خلفها وهى لا تحس ولا تشعر ، وتبعتها وهى تسير فى تلك الليلة ، وكانت مقمرة ، حتى انتهت إلى مقبرة . حيث كان فى انتظارها « غُولة » .

والغيلان — كما يعلم مولاى — شياطين أو كالشياطين ، يسكنون فى الأماكن الخربة ، والغابات المنقطعة المنعزلة ، يخطفون السابلة ، ويعيشون على لحومهم ، فإذا لم يجدوا ما يأكلون فزعوا إلى المقابر فنبشوا قبور الجدد من الموتى ، وأكلوا جثثهم .

* * *

راقبت زوجتى حين التقت بالغولة ، وأفزعنى أنى رأيتهما ذهبتا إلى قبر فنبشتاه ، وأخرجتا منه جثة لميت جديد ، وانكبتا على أكلها فى شراهة عجيبة ، ثم ألقيتا بعظامها فى القبر ، وأهالتا عليها التراب ، وأرجعتا القبر كما كان ، وكنت أسمع حديثاً لهما فى أثناء الأكل ، ولكنى لم أتبين منه كلمة ولا حرفاً ، ولعلهما كانتا تستعذبان الطعام الذى تقشعر منه الأبدان .

وتركتهما قبل الفراغ من إعادة القبر كما كان ، ورجعت مسرعاً إلى البيت ، وتركت الأبواب على الحالة التى تركتها أمينة زوجتى ، وخلعت ملابسى ، واضطجعت على فراشى وتناومت ، كأنى لم أغادر فراشى .

وبعد وقت قصير حضرت زوجتى ، وغلّقت الأبواب ، ونزعت عنها ملابسها ونامت بجوارى ، وهى على يقين أنى لم أشعر بها .

لم أذق النوم يا مولاى تلك الليلة ، ولما طلع الفجر قمت كعادتى ، فارتديت ملابسى ، وذهبت إلى المسجد ، وصليت الصبح ، وقرأت ما تيسر من القرآن ، ثم رجعت إلى بيتى ، حسب عادتى ، ولم أغير منها شيئاً ، ولكنى كنت أفكر فى طريقة أستطيع بها أن أصلح من أمر زوجتى ، وأنفرها من تلك الحال الشنيعة البشعة ، وانتهى بى التفكير إلى أن اللين أقوم سبيل .



أمينة والغولة تنهشان لحم ميت

جاء وقت الغداء ، وجلسنا أنا وزوجتي على المائدة ، وسارت على خطتها ، تأكل الأرز حبة حبة ، فقلت لها في هدوء ولين :

يا أمينة ، كم كنت أود أن تقاسميني طعامي ، وتهنئي بصنوفه الشهية مثلي ، فإني أحب لك السعادة في حياتك ، وإني حريص على أن أختار لك أفخر طعام وأجوده ، لأني أحبك ، وأحب أن تهنئي بالطعام الشهي الذي كأنه طعام أهل الجنة ، ولا أدري كيف ترغبين عنه ؛ وتزهدين فيه ، ثم تستعذبين لحوم الموتى ؟ !

فوجئت أيها الملك بأن نهضت في أسرع من البرق ، وفي ثورة عصبية مخيفة ، وغمست يدها في كوب من الماء على المائدة ، وتمتمت بكلمات لا أفهمها ، ثم رشتني بماء الكوب قائلة :

كن كلباً أيها الشقي التعس ! كيف تقدم على التجسس ، وتحاول الاطلاع على أسرار غيرك ؟ !

كانت زوجتي ساحرة وما كنت أعلم ذلك إلا حين سحرتني ومسختني كلباً ! وما كفاها ذلك ، ولكنها أمسكت عصًا غليظة وهوت عليّ ضرباً موجعاً ، حتى أيقنت أنها غير تاركة ضربي حتى أفارق الحياة ، فهربت منها إلى فناء الدار ، فتبعتني مصرة على قتلي ، وأنا على هذه الصورة . لتنجو من العقوبة ؛ لأنها إذ ذاك لم تقتل إنساناً ؛ ولكنها قتلت كلباً . . !

ولما أعياها ضربي عمدت إلى حيلة تقتلني بها ، وهي أن تفتح

باب الدار . فإذا ما حاولت الهرب منه أغلقت الباب على جسمى وعصرتنى ، وعلى الرغم من أنها مسختنى كلباً ، فإن عقلى لا يزال عقل إنسان يفهم ويفكر ، ففهمت حيلتها وحاولت أن أصون نفسى من الوقوع فى شركها ، فلما فتحت الباب جريت بعيداً عنه فتبعتنى إلى مكانى البعيد عن الباب . ثم جريت مسرعاً نحوه ، وخرجت كالريح منه . ولكنها كانت من ورائى فأغلقت الباب ، وأصاب ذنبى إصابة خطيرة موجعة . فجعلت أجرى وأنبح من شدة الألم ، وجمع نباحى الكلاب التى لم ترنى من قبل ، وطاردتنى مطاردة عنيفة حتى احتميت منها بدكان تاجر يبيع رءوس الضأن وكوارعها . وكان مسلماً تقيًّا ، فطرد الكلاب بعصاه . وألقى إلىّ طعاماً فأكلت حتى شبعت . ولكنه كان لا يحب الكلاب لأنه يعتقد نجاستها نجاسة مغلظة ولهذا طردنى بعد أن أطعمنى ، فمشيت حتى وجدت بيتاً متهدماً . فانسللت إلى مكان خفى بعيد عن الطريق . ونمت فيه ملتحفاً تعبى ووجعى وهمى حتى الصباح .

خرجت من مكمنى بعد أن طلعت الشمس . وجعلت أسير باحثاً عن شىء آكله . فمررت بتاجر يبيع الخبز فى دكانه . وكان يأكل ، فوقفت أمامه . أبصبص بذنبى ليمن على بلقمة من خبزه . . ! كان هذا التاجر كريماً رحيماً ، فألقى إلى لقمة كبيرة . فى حنان وعطف . فنظرت إليه نظرة تكاد تنطق بأنى ألفته . وأود ألا أفارقه .

فكان لهذه النظرة أثرها فى نفسه . وجعل ينظر إلى وأنا آكل لقمته فى عفة وأدب . فقال :

أنت كلب تعرف الأدب ، كأنك خارج من مدرسة .

فعرفت أنه مرح يرتجل النكتة . وأنه ذكى يقظ . وتمنيت فى نفسى أن أقيم عنده . وفى حمايته ورعايته ، فربما فهم بذكائه أنى لست كلباً . فيسعى فى خلاصى ، وإرجاعى إنساناً كما كنت .

وبعد أن أكلت اللقمة قال لى مشيراً بيده :

اقعد هنا . ولا تفارقنا .

فأقمت فى المكان الذى أشار إليه ، ولما أقفل الدكان أشار إلىّ أن أتبعه . فمشيت خلفه حتى كان أمام بيته ، ولما دخله وقف وأشار إلىّ أن أدخل البيت معه . فدخلته . ودلنى بالإشارة على مكانى الذى اختاره لأبيت فيه .

أقمت مع هذا التاجر مكرماً ، وكنت أرافقه إلى الدكان ، وأمكث فيه ، فإذا رجع إلى بيته رجعت معه ، وما شكوت جوعاً ولا عطشاً ، إذ كان يهتم بى ويطعمنى فى سخاء وكرم .

وذات يوم جاءته امرأة . واشترت منه خبزاً ، وأعطته ثمنه ، فوجد فى نقودها قطعة مزيفة ، فقال لها :

هذه القطعة مزيفة ، فهاتى قطعة أخرى سليمة بدلا منها .

فنفت المرأة أنها مزيفة ، وتجادلا ، وكل منهما مصر على رأيه .

ولما اشتد الجدل بينهما أحب أن يفهمها أن قطعتها واضحة التزييف ، فلا تخفى على أحد حتى الحيوان الأعجم فقال لها :

إن كلبي يفهم أنها مزيفة ، وقال مشيراً بيده :

تعال يا كلب ، وانظر هذه القطعة . . .

فقفزت وجريت إليه ، ووضع أمامى على منضدته قطعاً من النقود وفيها القطعة المزيفة ، فمددت يدى وعزلت القطعة المزيفة ، ونظرت إليه مشيراً إليها بيدى !



الكلب المسحور يميز النقود الزائفة من الصحيحة

فاندهشت السيدة ، واندهش التاجر ، وفرح بى فرحاً عظيماً ، وأعلن هذا لكل زبائنه والوافدين عليه ، وجيرانه والغادين والرائحين ،

ومنهم من كان يحضر ليختبرنى ، فكنت أخرج له القطع المزيفة وأعزلها . حتى ذاع صيتى ، وكنت حديث المجالس والأندية .

* * *

وذات يوم جاءت دكان التاجر امرأة ، فاشترت خبزاً ، وأعطته نقوداً فيها قطعتان مزيفتان ، وكانت تعلم ذلك ، ولكنها أرادت أن تختبرنى . ولما عرضت نقودها علىّ أخرجت منها المزيف وعزلته ، فقالت لى :

إنك أيها الكلب على الحق ، وإنك تستطيع أن تميز المزيف من غيره !

وجعلت تنظر إلى نظرات متقطعة ، فهمت منها أنها تريد أن أتبعها إذا مشت . ولما همت بالمسير أشارت إلىّ أن تعال معى ، وستنال الخير على يدى . . ! وكانت إشارة خفية ، لم يرها التاجر ، ولم يعرف عنها شيئاً . فلما مشت تبعتها . وقلت فى نفسى :

قد يكون خلاصى على يد امرأة ، كما كانت مصيبتى على يد امرأة .

وكانت تنظر إلى من حين إلى آخر . وأنا سائر خلفها ، مبدية لى سرورها إذ طاوعتها وتبعتها . ولما وصلت إلى بيتها أمرتنى أن أدخل معها ، فدخلت . وأغلقت الباب . ومشت بى إلى بهو جلست فيه فتاة رائعة الجمال ، تخيط ثوباً من الحرير الجميل .

كانت هذه الفتاة الجميلة بنت المرأة التى جاءت بى . فقالت لها أمها :

لقد أحضرت إليك كلب تاجر الخبز الذى يتحدث الناس عنه ويقولون :

إنه يميز المزيف من السليم من النقود ، وقد أخبرتك أنه إنسان قد سحر كلباً !

فنظرت إلىّ الفتاة ، وأطالت فى النظر ، ثم قالت :

حقًّا يا أماه ! إنه إنسان مسحور ، وسأرجعه إنساناً كما كان .

ثم أحضرت كوباً مملوءاً بالماء ، وغمست فيه أصابعها ، وجعلت تتمتم . . ! ثم رشتنى بماء الكوب وقالت :

إن كان الله قد خلقك إنساناً فارجع إنساناً كما خلقك !

فرجعت يا مولاى فى الحال إنساناً كما خلقت .

انشرح صدرى ، وأشرقت الدنيا بنورها فى وجهى ، وكان كل عضو من أعضائى ينطق بالشكر الجزيل لهذه الفتاة ، فركعت أمامها ، وأمسكت ذيل ثوبها ، وجعلت أقبله وأقول :

أيتها الإنسانة الكريمة ! لقد تفضلت علىّ وغمرتنى بمعروفك دون أن تعرفينى ، وذلك دليل على كرم أصلك ، وسمو نفسك ، وعظيم مروءتك . . .

أيتها الإنسانة الكريمة ! لقد وهبت لى الحياة ، فأنا أسيرك ، والمعترف بفضلك ما دمت حيًّا .

وأقبلت على أمها وجعلت أشكرها ؛ لأنها كانت مفتاح الخير . .

ثم قالت الفتاة :

اقصص علينا قصتك يا هذا .

فقصصت عليها قصة زوجتي ، وعرفتها باسمي ، وجعلت أشكرها ، وأثنى عليها ، فقالت :

اسمع يا نعمان ، لا أريد على معروفى هذا جزاء ولا شكوراً ، ويكفيني راحة نفسي وفرحتي ، إذ خلصت نفساً بريئة من يد غادرة ظالمة .

ولا غرابة عندى أن تفعل أمينة زوجتك ما فعلت ، فأنا أعرفها وأعرف أنها ساحرة ، لأننا تعلمنا السحر معًا . وهى تعرفنى ، وتعرف أننى أفوقها فى السحر ، وأكثر قدرة عليه منها ، ولكن الفرق بينى وبينها أنها تستعمل سحرها فى الشر ولا تستعمله فى خير أبداً ! بل إنها كرهتنى واعتزلتنى ، ولا تحب أن ترانى . . . لأنى على النقيض منها ، فلا أستعمل السحر إلا فى الخير ، ورفع الأذى عن الناس . . . ولهذا فإنى لا أزال أخاف عليك منها ، ولا يكفينى أنى دفعت عنك شرها ، وأنقذتك من ظلمها ، وأرجعتك إنساناً كما كنت ، فإنك إن عدت إليها ورأتك إنساناً كما خلقت — فزعت واضطرمت نيران الشر فى صدرها ، وأسرعت فسحرتك مرة ثانية . وقد لا تتركك حتى تقتلك ! أفهمت يا نعمان ما سمعت ؟ !

قلت :

سمعت ووعيت ، وأنت الكريمة التى لا تقول إلا الحق .

قالت :

ولحمايتك من شرها ، أحب أن أسحرها كما سحرتك : وما ظلمتها فى ذلك ، فإنها دقة بدقة ، والبادى أظلم .

قلت : جزاك الله كل خير .

قالت :

انتظرنى هنا مع أمى حتى أعود . . .

ثم نهضت ، وغابت عنا قليلا ، ولما رجعت إلينا قالت :

اسمع يا نعمان ، لقد نظرت فى كتب السحر فعرفت أن زوجتك الآن ليست فى بيتك ، وهى راجعة إليه بعد وقت غير طويل ، كما عرفت من كتب السحر أن زوجتك لم تُعَرِّف الخدم أنها سحرتك ، وأفهمتهم أن الكلب الذى كانت تضربه كان كلباً عابراً ، كما أفهمتهم أن أصدقاءك طلبوك وأنت تتناول الغداء فخرجت إليهم ، وستعود إلى بيتك بعد أن تنتهى من أصدقائك . . . !

ثم ناولتنى زجاجة صغيرة مملوءة بالماء وقالت :

ارجع إلى بيتك الآن ، وانتظر زوجتك فى الفناء ، فإذا رأيتها فلا تمهلها لحظة ، ورشها بماء هذه الزجاجة ، وقل لها : كونى فرساً ! فإنك ستجدها فرسا فى الحال . . واحذر يا نعمان أن تترك لها فرصة تسحرك فيها ، فإنك إن وقعت فى يدها هذه المرة ، فلا نجاة لك .

فشكرتها ، وشكرت أمها ، وأخذت الزجاجة ، وانطلقت مسرعاً إلى بيتى .

رجعت إلى بيتى ، واستقبلنى الخدم استقبالا عادياً ، لأنهم فهموا من زوجتى أنى كنت عند أصدقائى . وانتظرتها فى فناء البيت . . . فلما دخلت ، ووقع بصرها على اندهشت ، وهمت أن تسرع لتسحرنى ، ولكنى ما أمهلتها ، وأسرعت فرششتها بماء الزجاجة التى كانت فى يدى ، وقلت لها : كونى فرساً . . . فكانت فرسا فى الحال . وآليت على نفسى أن أركبها كل يوم ، وأرهقها جرياً ، وأوجعها ضرباً . . . وأفعل ذلك فى ميدان المدينة على مشهد من الناس ، غير مبال بما ينكرونه منى من القسوة والوحشية .

وهذه قصتى يا أمير المؤمنين ، فهل ترانى بعد هذا ظالماً قاسياً ملوماً ؟!

قال الرشيد :

لا لوم ولا ظلم . وإن زوجتك تستحق منك أكثر مما فعلت ، ولكن الصفح جميل : فاترك تعذيبها ، وأبقها مسحورة على صورتها ، وكفاها تعذيباً أنها بهيمة لا تنطق ، واحذر أن ترفع السحر عنها ، وتعيدها إنسانة كما كانت : فإنها مجبولة على الشر ، وإن أنت أرجعتها إنسانة انتقمت منك وسحرتك ، وأطلقت يدها فى إيذاء غيرك من الناس ؛ فصوناً لك ولغيرك من شرها — اتركها مسحورة ، ولا ترجعها إنسانة أبداً ، فمثلها لا يؤمن شرها وأذاها . ثم أمره أن ينصرف ، فانصرف نعمان شاكراً .

٤

نظر الرشيد بعد ذلك إلى صاحب القصر وقال له :

مررت أمس بشارع ... فرأيت قصراً عظيماً يسامى قصور الأمراء فخامة وروعة ؛ فحسبته لأحد الوزراء أو الأمراء فما وجدته لأحد منهم . وقيل لى : إن هذا القصر لرجل كان فقيراً ، يعيش على الكفاف من رزق يأتيه من صنع الحبال والاتجار فيها ! وكان يمشى حافى القدمين ؛ لأنه لا يملك حذاء ، وكان يلبس الخلق المرقع من الثياب ، لأنه لا يقدر على شراء الجديد منها . ونحن فى عجب عجاب ؛ إذ رأيناه قد اغتنى فجأة ، فبنى هذا القصر على تلك الحال من العظمة والفخامة ، وإذ وجدناه بعد هذا الغنى المفاجئ لم يرح نفسه ؛ ولم يترك التجارة فى الحبال ، ولكنه زاد نشاطه فيها ونماها ، وأصبح له عمال كثيرون ، يعيشون على أجورهم التى يأخذونها منه . فاتسعت تجارته ، وزادت ثروته ، كما قيل لى : إنك رجل طيب مستقيم ، ذو خلق كريم ؛ تطيع ربك ، وتؤدى حق عباده فى مالك ، وما استخفك المال وكثرته ، وما جمحت بك شهوات نفسك ، فلم تقع فى الرذيلة . ولم تجانب المروءة ؛ ولهذا كان سرورى عظيماً بك ، وأحببت أن أدعوك لأسألك :

كيف جاءك هذا الغنى بغتة ، وأنت على هذه الحال الطيبة من الصلاح والاستقامة ، وربحك من تجارتك ضئيل ، لا يسمن ولا يغنى من جوع ؟ ! وما أنا بحاقد عليك ، ولا حاسد لك ، ولكنى فرح بما أنعم الله عليك ، فإن أحب الأشياء إلى نفسى أن يعيش أفراد الرعية فى رخاء وأمن وسعة ، وأحب أن أعرف السر الذى كان السبب فى هذا الغنى المفاجئ ! فاقصص علينا قصتك ، من غير أن تترك منها شيئاً ، وإن ظننته تافهاً ، فإنى راغب فى معرفة وقائعها ودقائقها ، وكل خفى فيها ، فاقصص ولا تخف .

* * *

قال الرجل :

يا أمير المؤمنين ، ما ساورنى خوف ولا وجل ، حين جاءنى رسولك ، ودعانى إلى المثول بين يديك ؛ لأنى ما خرجت عن طاعتك ، وما اقترفت ذنباً أسىء به إلى نفسى ، أو إلى أحد من إخوانى وجيرانى ، وما انتهزت غفلة الناس ، فعصيت ربى ، وعصيت أمير المؤمنين ، فى أمر من أمور دينى أو دنياى ، ويعلم الله أنى فرحت كثيراً حين دعوتنى ، إذ منّ الله علىّ بشرف المثول بين يديك ، وقد زدت الآن فرحاً وغبطة ؛ لأن مولاى أمير المؤمنين سيستمع لحديثى ، وإن كان طويلا ، وأخشى أن يطول فى القول فأكون سبباً فى سآمة أمير المؤمنين وضجره .

قال الرشيد :

ما دعوتك إلا لأسمع حديثك ، فأطل فيه القول ما شئت ، فذلك ما أريده وآمرك به .

* * *

قال الرجل :

ولدت يا مولاى من أبوين فقيرين، وسمّيانى «حسَنًا» ولما انتهى أجلهما تُوُفِّيا، ولم يتركا لى شيئاً من المال، لأنهما كانا فى ضنك من المعيشة ، حتى إنهما كانا يبيتان جائعين أحياناً ، وقد ورثت عن أبى صناعة الحبال والاتجار فيها ، فأخذت أعمل وأتجر قانعاً راضياً ، سائراً فى ذلك على طريقة أبوىَّ التى ربيانى عليها من القناعة والرضا ، وقد ماتا وهما راضيان عنى ، ويدعوان لى بالسعادة فى النفس والمال . فرحمهما الله ، وجعل الجنة مثواهما .

إن لى يا مولاى صديقين حميمين ، وهما السبب فى غناى وكثرة مالى ، وما أنا فيه من سعادة ونعمة ؛ وهما لا يزالان عائشين ، ويشهدان لى بصدق ما سأقول .

أما أحدهما فاسمه سعيد ، وأما الآخر فاسمه سعد وبينهما صداقة ومودة ، لا يفارق أحدهما صاحبه إلا لضرورة . وكان سعيد من كبار الأغنياء ، ويرى أن المال وحده ، وسيلة إلى سعادة المرء فى حياته ، ولا يمكن أن يكون سعيداً إلا إذا كان غنيًّا ؛ لأنه يستطيع بالمال أن يفعل ما يشاء ، وينال ما يريد ، ويلبى داعى رغباته . ويحقق ما شاء

من لذاته . . . وبغير المال لا يصل إلى شيء من ذلك ، ولا يرى للسعادة وجهاً ، ولا يشم لها ريحاً .

أما سعد فإنه كان على النقيض من رأيه هذا ، كان يرى أن المرء يمكنه أن يكون سعيداً وإن لم يكن اه مال ما دام كريم الخلق ، طيب القلب ، طاهر النفس ، لا يلوثها حقد ولا حسد ، شريف الغرض ، رفيع المقصد ، جميل السمعة ، عظيم المروءة ، ذا حظ عظيم فى حياته .

وكان هذا كل ما بين هذين الصديقين من خلاف فى الرأى :

فسعيد يرى أن المال وسيلة إلى السعادة ، وأن المرء لا ينال الغنى إلا بكده وسعيه واجتهاده .

وسعد يرى أن الحظ قد يكون وسيلة إلى السعادة ، وأن المرء قد ينال الغنى من غير سعى ولا كدح ولا تعب .

وكان سعيد يقول :

إن الفقر يحل بالمرء لأنه ورثه عن أبيه ، فركن إليه ورضى به ، ولم يعمل لكسب المال وجلب الغنى ، وقد يرث الغنى ولكنه يضيعه بإسرافه وتبذيره وإهماله ، وبالقعود عن السعى والكدح ، وبترك الاجتهاد للكسب وزيادة الغنى وتنمية ما ورث من المال ، فترك العمل والقعود عن طلب المال وتنميته طريق إلى الفقر .

وكان سعد يقول :

إن المرء قد يأتيه الغنى دون أن يخطو خطوة واحدة إليه ، لأن الحظ

يواتيه ، والأيام مقبلة إليه ، وقد يفر منه الغنى وهو يعض عليه بأسنانه ، ويفقد ماله وهو يسعى ويكدح فى تنميته ، لأن الحظ السعيد فارقه ، والأيام أدبرت عنه .

اشتد بينهما الجدال فى ذلك ، وكل منهما مستمسك برأيه ، ويدلى بالبراهين على صحته . فقال سعيد بعد طول الجدل :

دعنا من هذا الحوار الذى لا ثمرة له ، ولنحسم بالتجربة هذا الخلاف الذى بينى وبينك ، وسأريك أن العمل وسيلة إلى الغنى ، وأن الغنى وسيلة إلى السعادة .

قال سعد :

وأحب أن أرى ما تفعل ، فعلى أى شىء عزمت ؟

قال سعيد :

سنبحث عن رجل فقير ، وسأمنحه مالا كثيراً ، وسترى أنه إذا ما أحسن تدبيره ، والقيام عليه ، وبذل جهده وسعيه لتنميته — صار غنيًّا ، وزال عنه ضنك الفقر وبؤسه ، وعاش فى ظل ظليل من السعادة .

قال سعد :

فإن لم ينفعه مالك ، واستمر الفقر جاثماً على صدره ، وإن ضاع هذا المال رغم أنفه ، وحملته الحزن والحسرة على ضياعه . وأضفت بذلك إلى همه همًّا آخر مثله — فماذا أنت فاعل ؟

قال سعيد :

ترينا أنت تجربة عندك ، تثبت بها رأيك .

قال سعد :

لك ذلك .

وبينما هما سائران ذات يوم فى الجهة التى أتجر فيها ، رأيانى وأنا منكب على صنع الحبـــال . وأمامى ما صنعته ، وقد عرضته للبيع ، وحالتى تنم عن فقر شديد ثقيل : فثيابى مقطعة مرقعة ، قصرت عن تغطية اليدين والساقين ، وقدماى عاريتان لم يمسا فى حياتهما نعلا . فأقبلاإلى . وسلما على . فرددت السلام بأحسن منه ، ورأيتهما فى ثياب تدل على غنى واسع . وجاه عريض ، فاستبشرت بقدومهما ، وقلت فى نفسى :

سيشتريان منى كثيراً من الحبال ، وسيجرى على أيديهما هذا اليوم رزقى ورزق عيالى .

وسألنى سعد :

أتشتغل فى هذه الصنعة منذ مدة ؟

قلت : أشتغل فيها منذ قدرت على العمل ، وقد ورثتها عن أبى الذى أفنى عمره فيها ، وما ادخر أبى ولا ادخرت أنا شيئاً من أوقاتنا ولا من نشاطنا وكدنا فى العمل والاهتمام بهذه الصنعة .

قال سعيد :

ولكن هذه المدة التى قضيتها أنت وأبوك فى هذه الصنعة فى كد

وداب مستمر كفيلة بأن تدر عليكما أموالا طائلة ، وأرباحاً كثيرة ، تجعلكما من الأغنياء المعدودين .

قلت :

ما قصرنا ولا أهملنا ، ولا قعد بنا الكسل يوماً من الأيام ، ولكننا لا نجنى إلا الكفاف من الرزق ، الذى يمسك رمقنا ، ويصون وجوهنا من سؤال الناس واستجدائهم .

قال سعيد :

يخيل إلى أن قلة ربحك ، سببها قلة رأس مالك ، ويبدو لى أنى او منحتك مائتى دينار ، تحيي بها صنعتك ، وتستخدمها فى الإكثار من العمال والبضاعة ، لحصلت على ربح عظيم ، وأصبحت بعد مدة وجيزة من الأغنياء البارزين .

فقلت : يبدو لى يا سيدى أنك رجل ذو مروءة ورحمة ، وأن محبة الناس والعطف على الفقير منهم يملآن جوانب نفسك ، ويسرك أن ترى الناس فى رخاء وسعة ، ولا يشكون حاجة ولا فقراً ، وإن نفسى لتحدثنى بأنك جاد فى قولك ، غير هازل ولا ساخر .

قال سعيد :

ما أخطأ ظنك ، وما أنا إلا جاد فى قولى ، ولست بهازل ولا ساخر .

قلت :

إذا أنت منحتنى يا سيدى هذه الدنانير فإنى أعدك وعد صدق أنه

بجدى واجتهادى ، وبالسعة فى رأس مالى ـ سأصبح بعد وقت وجيز من الأغنياء الذين يشار إليهم بالبنان ، والفضل فى ذلك راجع إليك ؛ ولن أنسى هذا المعروف ما دمت حيًّا .

فأخرج سعيد من جيبه كيساً ، ودفعه إلى وقال :

هذا الكيس فيه مائتا دينار ، فاجعلها رأس مالك ، وأدعو الله أن يبارك فيها لك ، وسأعود إليك أنا وصديقى سعد ، لنفرح بمستقبلك السعيد ، ومالك المديد . . . ثم سلما علىّ وانصرفا بعد أن ودعتهما وداعاً كريماً .

فرحت يا أمير المؤمنين بالدنانير فرحاً عظيماً ، ورجعت إلى بيتى وأنا فى دنيا جديدة من الأمل الباسم المشرق ، والمستقبل الحافل بالخير والسعادة .

لم تعلم زوجتى ولا أحد من أولادى الصغار الخمسة شيئاً عن هذه المنحة السخية ، ولم أرد أن أطلعها على أمرها ، خشية أن يسيل عليها لعاب طمعها ، فتزعجنى بإنفاق كثير منها فى كثير من أصناف الملابس والحلى والطيِّب لها ، ولا أجد فى بقيتها ما يحقق غرضى من النهوض بصناعة الحبال ، حتى أنشئ أكبر مصنع لها فى بغداد ، يدر الرزق الوفير على أسر كثير من العمال الذي يشتغلون فيه ، ويدر علىّ الغنى الواسع فى وقت وجيز ، ولهذا أخفيت أمر الدنانير عنهم ، ولكن . . أين أحفظها وأصونها ، حتى أدبر أمرى ، وأضع الخطوط الرئيسية لإنشاء المصنع ،

وشراء كميات كثيرة من الكتان ، واختيار عمال أمناء ماهرين ، يصنعون أجود أنواع الحبال ؟ لم أجد فى بيتى مكاناً حريزاً أحفظها فيه ، فقعدت فى ناحية من البيت ، معتزلا زوجتى وأولادى ، وجعلت أفكر وأفكر . حتى اهتديت إلى أن أحفظها فى طيات عمامتى . فهو المكان الذى لا يخطر ببال أحد أن فيه دنانير .

أخرجت من الكيس يا أمير المؤمنين عشرة دنانير . وحفظت الباقى فى الكيس ووضعته فى طيات عمامتى ولبستها ، وكأنها خالية ليس فيها شىء ، ثم خرجت إلى السوق واشتريت بعضاً من اللحم يطعمه أولادى وزوجتى ، لأنهم لم يذوقوا اللحم منذ شهور .

اشتريت اللحم وبعضاً من الخضر . وبينما أنا خارج من السوق ، انقضت حدأة كبيرة كأنها الصقر على يدى وأنشبت أظفارها فى اللحم وهمت أن تطير به فى سرعة خاطفة ، فأسرعت وتشبثت باللحم . ووقع ما يشبه العراك بينى وبين الحدأة ، فسقطت عمامتى من فوق رأسى على الأرض ، فانقضت الحدأة عليها فى لمح البصر وخطفتها وطارت وارتفعت ، وما كان يخطر ببالى أن الحدأة ستترك اللحم وتخطف العمامة ، ولهذا طارت بها قبل أن أرمى جسمى عليها ، وأحول بينها وبين اختطافها ، وضاع صياح الناس وضوضاؤهم والتلويح بأيديهم وعصيهم ، ضاع كل أولئك سدى ؛ فإن الحدأة لم يزعجها شىء من ذلك ، واستمرت فى طيرانها مسرعة حتى اختفت عن الأنظار ، واختفى باختفائها أملى ومستقبلى .

اشتريت عمامة لى من السوق بدلا من عمامتى المخطوفة ، ورجعت إلى البيت حزيناً كئيباً كاسف البال ، وكان حزنى أشد وأوجع على خيبة سعيد فى أمله ، وزادنى حسرة على حسرة ، وألماً على ألم — أنى خشيت أن يتهمنى بالاحتيال والكذب حين يرجع إلى ومعه سعد صاحبه ، إذا ما حكيت قصة الحدأة ، واختطاف العمامة .



الحبال وقد اختطفت الحدأة عمامته

وجدت زوجتى يا أمير المؤمنين أنى وسعت على عيالى فى هذا اليوم ، وكان من الواجب أن أكون مسروراً ، ولكنها وجدتنى حزيناً كئيباً واجماً ، أحمل من الحزن والغم ما لا تحمله الجبال ، فاندهشت زوجتى وأقبلت علىّ قائلة :

وسّعتَ على عيالك ، واشتريت لك عمامة جديدة ، وهذا شيء يسرني ويسرك ، ولكني أراك تتوج حزناً وغمّاً ، فماذا حدث لك ؟ ! هل تحس مرضاً ، أو وجعاً فى عضو من أعضائك ؟ ! سلمت وعوفيت ! فماذا جرى ؟ !

قصصت على زوجتى قصة الدنانير ، فابتأست وتنهدت ، وقالت :

خشيت عليها منى ، وأخفيتها عنى ، فسلط الله عليك الحدأة ، وجزاك بسوء ظنك حرماناً وحسرة وندماً ؛ إن المرأة فى البيت سكن آمن لزوجها وأولادها ، فكيف تظن بها غير ما خلقت له ، وهل رأيت فى حياتى معك ما يريبك ، ويجعلك فى مخافة منى ؟ ! لقد ذقت معك مرارة الفقر ، وضنك المعيشة ، وصبرت راضية قانعة ، فكيف تخشى أن أتلف بالإسراف مالا ربحته أو مُنحته ، لأعود بك إلى مرارة الفقر وأوجاعه ؟ ! لو كان هذا المال مقسوماً لنا لأخبرتنى به ، وعاونتك فى المحافظة عليه وصونه ، ولكن هذا قضاء الله الذى لا مرد له . وما ضاع من مالك ما وعظك ، فأسلم لله أمرك ، وارض بما قسمه لك ، وقدره عليك ، واصرف عنك أحزانك ، فما رد حزن ضائعاً ، ولا أرجع ميتاً ، ولا أصلح تالفاً .

استمتعنا بالدنانير العشرة ، فترة وجيزة . ذقنا فيها حلاوة الغنى ، والبسطة فى الرزق ، ولما نفدت رجعنا إلى معيشة العدم ، وبؤس الحاجة ، صابرين قانعين راضين .

* * *

وبعد ستة شهور من خطف عمامتى جاءنى فى محل عملى سعيد وسعد ، فسلمت عليهما وأجلستهما ، وأنا غارق فى همى وخزيي وخجلى ، فقال سعيد صاحب الدنانير :

لعلك يا حسن اخترت مكاناً آخر أقمت فيه مصنعك ، حيث السوق نافقة ، والحبال مطلوبة ؟ !

فقال سعد :

لا أظن ذلك ، وما أقام مصنعاً ، ولا أفاد شيئاً .

قال سعيد : من أين لك هذا ؟

قال سعد : من دلّه وشكله ، فحاله كما هى لم تتغير ، وربما لمحت فى عمامته بعض النظافة ، التى لم تكن فيها من قبل .

فسألنى سعيد :

وماذا صنعت بالدنانير يا حسن ؟ فقلت : ما لبثت فى يدى إلا ليلة واحدة ، ثم ضاعت ، فكدت أقتل نفسى أسفاً عليها وحسرة ، قال سعيد :

يخيل إلى يا حسن أنك من هؤلاء الفقراء الذين إذا وقع فى أيديهم مال كثير انتقموا لأنفسهم من الفقر بالإسراف والتبذير ، حتى ينفد المال ، ليعودوا بأنفسهم وأهليهم إلى ذلّ الفقر وبؤسه .

قلت :

ليت الأمر كما خيل إليك ! ولو كان الأمر كما قلت لسعدنا بالمال حيناً ، ولكن الدنانير باتت عندى ليلة واحدة ثم طارت .

قال سعيد :

هل تطير النقود يا حسن ؟

قلت :

نعم ، كما طارت دنانيرك ، وإن الألم ليحز فى نفسى خشية ألا تصدقانى إذا حكيت لكما كيف طارت الدنانير . ومع هذا فإن الحادثة وقعت فى سوق عامة ، على مشهد من الناس، وأقسم لكما بالله إنى لمن الصادقين .

فسألانى :

وكيف طارت الدنانير ؟ !

فحكيت القصة من أولها إلى آخرها ، ثم قلت :

وكان بودى أن تجيئانى فتجدا مصنعاً كبيراً يموج بالعمال ، ومالا كثيراً يحقق ما كنتما ترجوانه لى من سعادة وهناءة .

صدقنى سعد واقتنع ، فجعل يقص على سعيد قصصاً من أمثالها حتى اقتنع وصدقنى مثله ، ثم أخرج من جيبه كيساً وناولنى إياه وقال :

هذه مائتا دينار غيرها ، فاحرص عليها ، واحذر أن تطير منك .

قلت له :

إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين .

وشكرت له فضله ، وجزيل إنعامه ، وأنه لم ييأس منى ، بل وسعنى بعطفه ورحمته ، وأتاح لى فرصة أخرى ، لعلى أكون بعدها من ذوى الثراء والغنى . ثم نهضا فودعتهما وانصرفا .

* * *

ذهبت إلى البيت ، وجعلت أدور بفكرى فى أرجائه لعلى أهتدى إلى مكان حريز فيه ، يحفظ لى الدنانير ، ولآخذ ما أحتاج إليه فى شئون التجارة ، وتنمية رأس المال ، وقمت أجول فى نواحى البيت حتى وجدت جرة مملوءة بالنخالة ، وهى ملقاة فى مكان مهجور ، لا يذهب إليه أحد منا ولا من غيرنا ، فذهبت إليها ودفنت الكيس فى النخالة التى فى الجرة ، بعد أن أخذت منه عشرة دنانير ، لأشترى بعضاً من الكتان . ولم أعرف زوجتى ولا أحداً بهذه الدنانير ، ولا بمكانها . ثم ذهبت إلى عملى ، وكنت قد وضعت الدنانير فى الجرة ، فى وقت كانت زوجتى فيه غائبة عن المنزل .

نمت ليلة وقمت فى الصباح وتفقدت الجرة فوجدتها كما هى ، فذهبت إلى عملى وأنا عازم على أن أستخدم الدنانير فى الصناعة والتجارة لأحصل على الغنى المنشود .

وفى أثناء النهار مر بالبيت بائع ليف ، وكانت زوجتى فى حاجة إلى بعضه ، ولم يكن معها نقود تشترى به حاجتها من الليف ، وخطر ببالها الجرة المهملة ونخالتها التى لسنا فى حاجة إليها ، فقالت لبائع الليف :

أتبيعنى ليفاً بجرة مملوءة نخالة ؟

فقال أرنيها ، فأحضرتها له فأعجبته ، فأخذها وأعطاها حاجتها من الليف ، ومضى لسبيله . . . ! وكان هذا التاجر جوالا غير معروف ؛ ولم تره زوجتى إلا فى هذا اليوم .

رجعت من عملى آخر النهار إلى البيت ، وتفقدت الجرة فلم أجدها ، فكدت أجن ، وجعلت أسعى فى البيت متنقلا فى أرجائه ، أبحث عن الجرة فى هم وفزع . . . ! ولما لم أجدها ناديت زوجتى وسألتها عنها فقالت :

اشتريت بها وبالنخالة التى فيها هذا الليف الذى تراه — وأشارت إليه — فضربت يداً بيد ، وقلت :

وامصيبتاه !! . . .

فقالت زوجتى :

ماذا جرى ؟ ! جرة مهملة لا حاجة لنا بها ، استبدلت بها ليفاً نحن فى أشد الحاجة إليه ، فأين المصيبة التى نزلت بنا ؟ !

فقلت لها :

لو علمت أنك اشتريت الليف بمائة وتسعين ديناراً لعرفت المصيبة التى حلت بنا بسبب تصرفك الطائش .

قالت :

ماذا جرى لك يا زوجى العزيز ؟ !

ومن أين جاء لنا مائة وتسعون ديناراً ؟ !

وما للجرة وهذه الدنانير ؟ !

قل لى : ما حكايتك ؟ !

فقصصت عليها قصة الدنانير الثانية ، فجزعت وبكت ، وجعلت تصك وجهها وصدرها ، وتنتف شعر رأسها ، وتعض على يديها ، وتقول :

لقد ضيعت علينا مائة وتسعين ديناراً ! أين أجد بائع الليف ؟ ! إنه بائع جوال وما رأيته مر بنا قبل الآن !! واخيبتاه !! واحسرتاه !!

ثم التفتت إلى قائلة :

وكيف تضع الدنانير فى جرة مهملة ، إن سألتنى فيها امرأة فقيرة عابرة منحتها إياها من غير شىء ؟ !

ولم لم تخبرنى بالدنانير التى منحتها ؟ !

ألم يكن لك فيما وقع للدنانير الأولى عظة وعبرة ؟ !

لئن كنت أخطأت أنا فإن لى العذر فى خطئى ، لأننى جاهلة لا أعلم شيئاً عن الدنانير ، ولكنك أنت لا عذر لك فى خطئك ؟ !

وكيف لا أكون موضع سرك ، وأنا الأمينة على مالك وأولادك وحياتك ؟ !

فقلت لها :

لا تجزعى ، واهدئى ولا تهلعى ، فإن الحذر لا يمنع القدر ، ولو أخبرتك لضاعت أيضاً ، وحملت مسئولية ضياعها ، ولكن الله

أعفاك من المسئولية بكتمانى عنك أمرها ، واكتمى هذا الحادث عن الجيران وعن الناس حتى لا يشمت بنا أحد ، ولا نكون أضحوكة فى أفواه القريب والبعيد ، وما دام الله قد أراد لنا الفقر والعيش الكفاف فإنا راضون قانعون . واعلمى أن الغنى فضل من الله يؤتيه من يشاء ، وما كان لك فسوف يأتيك ، وما ليس لك فلن يصل إليك .

وظلت زوجتى حزينة حتى خفف الزمن عنها حزنها وهمّها .

* * *

استأنفت عملى فى محلى صابراً قانعاً بالكفاف من الرزق، راضياً بما أراده الله لى وقدره، ولكن الألم كان يهيج بى كلما تذكرت سعيداً وكلما تذكرت موقفى منه إذا حضر وسألنى عن دنانيره ، وإذا كان قد صدقنى فى المرة الأولى ، فهل هو سيصدقنى فى المرة الثانية ؟ وهل ذلك جزاء من وسعنى عطفه ورحمته ومروءته ؟ إن الدنانير قد ضاعت على الرغم منى ، وليس لأحد منـــا ذنب فى ضياعها ، ولكن . . . من يُقنع سعيداً بذلك ، حتى لا أكون موضعاً للشبهة أو الكذب فى نفسه ؟ ! إن الأمر فوق طاقتى ، ولكنى أكله إلى الله ، فهو الذى يدافع عن المؤمنين الصادقين ، ويتولى عباده الصابرين .

مضى على فقد الجرة ثمانية شهور ، وبينما أنا جالس فى محلى أبصرت سعيداً وسعداً قادمين ، فانكببت على عملى مطرق الرأس ، لأوارى خجلى بالانهماك فيه ، وأحُثّ نفسى على الثبات ، ما دمت بريئاً

ولا ذنب لى ولبثت مطرقاً حتى كانا فوق رأسى ، ونبهانى بإلقاء التحية ، فرفعت رأسى ، ورددت التحية بأحسن منها ، ونهضت واقفاً فى ثبات وجلد ، وأجلستهما وأحسنت لقاءهما ، ثم جلست وبدأتهما بالحديث فقلت :

إذا أراد الله أمراً فلا مرد له ، وقد أراد الله أن أظل فقيراً حتى هذه الساعة ، لحكمة لا نعرفها . ولا أدرى : هل أظل فقيراً أو كتب لى الغنى فى مستقبل الأيام ؟ لقد تعلم يا سيدى سعيداً أنك حاولت أن أغتنى وأسعد على يديك ، وبفضل من عندك ، وتعلم يا سيدى كيف فشلت المحاولة الأولى ، ولقد تعجب كثيراً حين ألقى الآن فى سمعك أن المحاولة الثانية قد أخفقت ، وسأقص عليك حكايتى لتعلم كيف كان القدر فى تدبير ونحن فى تفكير ! ولتعلم أن المرء لا مفر له ولا مهرب ، مما قدر عليه وكتب .

وأخذت يا أمير المؤمنين أقص عليهما حكايتى حتى فرغت منها ، ثم قلت :

لعلكما تقولان لى : لم وضعت الدنانير فى الجرة ؟

ولكنى إذا عرفتكما أن هذه الجرة مهملة فى مكانها بضع سنين لا تنقل من مكانها ، ولا تصل إليها يد أحد إلا يد زوجى حين تضع فيها نخالة أو تأخذ منها نخالة .

وإذا عرفتكما أن بائع الليف بائع جوال غريب لا يعرفه أحد .

وإذا عرفتكما أنه لم يمر ببيتنا قط إلا ذلك اليوم .

إذا عرفتكما ذلك زال اعتراضكما ، وانمحت عنى مسئولية وضع الدنانير فى الجرة ، ولو كنت أعلم الغيب ما وضعتها فى الجرة أبداً .

وربما قلتما : لِمَ لَمْ تخبر زوجتك حتى تتخذ منها حارساً ومعيناً ؟ قلت لكما :

لقد كان هذا سرًّا بينى وبينكما . وعزمت على أن أخفى أمر الدنانير حتى أحقق بها ما تبغيانه لى من الغنى والثراء ، وخشيت إن أنا أطلعتُ أحداً عليها أفلت الغرض من يدى ، فما كنت فى ذلك إلا سالكًا سبيل الحزم والحكمة . وعلى أية حال فإننى ما زلت لسيدى سعيد أسير فضله ، ولن أنسى معروفك ما دمت حيًّا ، كما أن الله سيضاعف لك أجرك ، وإن لم يتحقق أملك ، فإنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى .

قال سعيد :

اعلم يا حسن أننى ما أعطيتك الدنانير بجميعها إلا ابتغاء وجه الله ومرضاته ، ورغبة منى فى إغنائك وإسعادك ، وإذا آلمنى إخفاقك ، وجعل الندم يساورنى فلست بنادم على دنانير منحتها ، ولكن على أنى لم أحسن اختيار الرجل الذى يستطيع الانتفاع بها ، ويحقق الغرض منها . وما كان لى الآن أن أركب رأسى وأعاند القدر ، فإنى حينئذ لا محالة مهزوم وخاسر ، ثم التفت إلى سعد وقال :

لقد نفضت يدى من أية تجربة ، ولك أنت أن تأتينا بتجربتك ، ولتكن مع حسن نفسه ، حتى لا يكون لاختلاف الرجال أثر فى نتيجة التجربة .

فقال سعد :

ذلك حق يا سعيد ، ثم أخرج قطعة من الرصاص وقلبها فى كفه أمام عينى سعيد وقال :

هذه قطعة من الرصاص لا تعدو قيمتها فلساً واحداً ، سأدفعها إلى حسن ، وسترى بعد ذلك أثرها فى إسعاده وإغنائه .

ثم دفعها إلىّ وقال :

لقد جربت الذهب ، فلتجرب الرصاص يا حسن .

خيل إلىّ يا أمير المؤمنين أن سعداً لم يكن جاداً ، وما كان فى ظنى إلا هازلا ساخراً ، ولكنى لم أشأ أن أغضبه ، فأخذتها منه ، وألقيتها فى جيبى من غير اهتمام ولا عناية ، ثم حيانى سعيد وسعد وتركانى ومضيا .

رجعت إلى منزلى يا أمير المؤمنين فى آخر النهار وخلعت ملابس العمل ، فسقطت قطعة الرصاص من جيبى ، فوضعتها فى كوة بغرفة النوم ، وتعشيت أنا وأولادى وزوجتى بما قسمه الله ، وجلسنا نتحدث حسب عادتنا .

وفى تلك الليلة كان لنا جار صياد يصلح شبكته ، فوجد أنه

ينقصها قطعة رصاص كبيرة ، ولا بد منها فى تلك الليلة ؛ لأنه يأخذ شبكته عند طلوع الفجر كل يوم ويذهب إلى البحر ، يصيد ما قسمه الله له ، ويبيعه ؛ لينفق من ثمنه على عياله ، وكانت الدكاكين قد أغلقت ، فلم يتيسر له شراؤها ، فأرسل زوجته لتسأل الجيران ، لعلها تجد عند أحد منهم قطعة رصاص ، فطافت على بيوت الجيران الأقربين والأبعدين ما عدا بيتنا ، ثم رجعت إلى زوجها وقالت : لم أجد عند أحد منهم قطعة رصاص ، فقال لها :

وهل ذهبت إليهم جميعاً ؟

قالت :

ذهبت إلى بيوتهم جميعاً ما عدا بيت حسن الحبال .

قال :

ولم لم تذهبي إليه ؟

قالت :

إنه رجل كما تعلم فقير ، وإنى أستبعد أن أجد عنده طلبتك .

قال لها :

لا تستصغرى شيئاً فى الدنيا ، فقد يكون عند الصغير حاجتك .

جاءت زوجة الصياد ، وطرقت الباب ، وكنت إذ ذاك قد أويت إلى فراشي ، فنهضت إليها وفتحت الباب ، وسألتها عن حاجتها ؛ فقالت :

إن شبكة زوجى ينقصها قطعة من الرصاص ، فهل أجدها عندك ليصلح بها شبكته .

فقلت لها :

عندى حاجتك ، فانتظرى حتى آتى بها إليك .

وغادرتها إلى الكوة ، ثم رجعت إليها وأعطيتها قطعة الرصاص ، فلما أمسكتها فرحت بها فرحاً عظيما وقالت :

هذه هى التى يريدها زوجى ، وإن شاء الله لك أول صيد تخرجه الشبكة عند إلقائها فى البحر صباحاً ، وسأحضره إليك غداً ، أو يحضره إليك زوجى .

ودخلت على زوجها الصياد فرحة ، وأعطته قطعة الرصاص ، وأخبرته أنها وعدتنى أن يكون لى أول صيد تصيده الشبكة ، ففرح وقال :

لك ما وعدته به إن شاء الله ، وشكر الله له فضله .

ثم أصلح شبكته ونام حامداً ربه .

* * *

طلع الفجر وحمل الصياد شبكته وعصاه ومِكْتله ، وذهب إلى البحر ، وهناك ألقاها ثم أخرجها فوجد فيها سمكة واحدة كبيرة ، فوضعها فى مكتله وقال :

هذه لحسن الحبال .

ثم جعل يلقى شبكته فى البحر ويخرجها ، وفى كل مرة كانت تخرج

سمكاً كثيراً ، ولكنه أصغر من السمكة الأولى .

وبينما أنا جالس فى دكانى إذ جاءنى الصياد وقال :

أيها الجار العزيز ، إن زوجتى كانت قد وعدتك فى الليلة الماضية أن يكون لك أول صيد تصيده الشبكة ، وهذه السمكة الكبيرة هى التى أخرجتها فى أول رمية ، وهى لك ، فتفضل علينا بقبولها ؛ ولو أخرجت الشبكة فى أول رمية عشر سمكات مثلها لأحضرتها لك .

فقلت له :

يا جارى العزيز ، إن قطعة الرصاص لا قيمة لها ؛ ولا تستأهل هذا الجزاء العظيم ، ونحن جيران بيننا رابطة قوية من المحبة والتعاون ، وما فعلت معك إلا ما يجب علىّ نحوك .

قال الصياد :

أكرم جارك بقبول هديته . فلم أجد مفرًّا من قبولها ، فأخذتها وشكرت له جزيل فضله وإنعامه .

حملت السمكة إلى بيتى ودفعتها إلى زوجتى قائلا :

هذه السمكة التى وعدتنا بها جارتك زوجة الصياد حين جاءت وأخذت قطعة الرصاص .

فسألتنى زوجتى :

ومن أين جاءت إليك قطعة الرصاص ؟

فحكيت لها قصتها ، وقلت لها :

إن سعداً الذى أعطانيها ، وعدنى أنها ستكون مفتاحاً لخير كثير يأتينا ، ولعل هذه السمكة هى نهاية الخير الذى وعدنى به .

وأخذتها زوجتى ، وانكبت على تنظيفها وتقطيعها ، فوجدت فى بطنها قطعة كبيرة من الزجاج . فلم تعبأ بها ، ودفعتها إلى أولادها يلعبون بها . لأنها لم تكن تعرف الماس ، ولا رأت شيئاً منه قبل ذلك .

كانت قطعة الزجاج جميلة الشكل ، تخرج منها ألوان زاهية ، وبريق جذاب ، فشغف الأولاد بها ، وتنازعوا عليها ، كل منهم يريدها لنفسه ، وأحدثوا من أجل ذلك جلبة وصخباً وبكاء . . فذهبت إليهم ، لأسكت تلك الجلبة ، وأنصف المظلوم منهم ، وعرفت أن قطعة الزجاج مثار النزاع والتشاحن بينهم ، فأخذتها منهم ، وذهبوا إلى مضاجعهم وناموا .

وفى الصباح دفعت قطعة الزجاج إلى زوجتى ، وحذرتها من التفريط فيها ، ووصيتها بالمحافظة عليها ، وألا تدفعها إلى الأولاد حتى لا تخلق المشاكل بينهم ، ثم ذهبت إلى دكانى

وكان لنا جار يهودى يتجر فى الذهب والفضة والأحجار الكريمة من ماس وياقوت وغيرهما ، فجاءت امرأته راحيل إلى زوجتى ، وشكت لها ما أقلقهم بالليل من صخب أولادها وبكائهم وصراخهم ، فاعتذرت لها وقالت :

كانوا يتخاطفون قطعة زجاج جميلة الشكل ، ويتنازعون عليها .

ثم نهضت وأحضرتها إليها ، فلما أمسكتها راحيل ونظرت إليها عرفت أنها قطعة من الماس ، وأصرت فى نفسها أن تشتريها فقالت :

إن عندى قطعة زجاج مثلها ، وأريد أن أصنع منهما قلادة لى ، فبيعيها لى بعشرين ديناراً .

وسمع الأولاد ما قالت راحيل ، فزاطوا و بكوا وقالوا لأمهم :

لا تبيعيها ، وخليها لنا نفرح بها ونلعب .

فأجابتهم أمهم إلى ما طلبوا ، وقالت لهم :

لن أبيعها .

فقالت راحيل :

بيعيها لى بخمسين دينارا .

فقالت

لن أبيعها يا راحيل ، فأنت ترَيْن تشبث الأولاد بها ، وإرضاء أولادى أحب إلى من مائة دينار .

فقالت راحيل :

أشتريها بمائة دينار .

فقالت زوجتى :

وعلى أية حال فإنى لا أستطيع أن أتصرف فيها ببيع ولا غيره ؛ لأن زوجى حذرنى من التفريط ، فالبت فى أمرها عند زوجى .

فقالت راحيل :

أرجو ألا تفرطى فيها حتى أرجع إليك .

ثم قامت ، وخرجت :

ذهبت راحيل إلى زوجها ، وأخبرته أن عند جاره حسن الحبال قطعة من الماس النقى، وأخبرته عن حجمها ووزنها وشكلها على وجه التقريب ، فعرف قيمتها ، وأمرها أن ترجع إلى زوجتى وتشتريها منها بأى ثمن مهما يبلغ مقداره .

رجعت راحيل إلى زوجتى ، وجعلت تغريها وتدفعها إلى أن تبيعها قطعة الزجاج ، فقالت لها زوجتى :

لا تحاولى عبثاً ، فأمر بيعها أو عدم بيعها فى يد زوجى .

ثم التفتت وراءها ، فرأتنى قادماً إلى البيت لأتغدى ، فقالت لراحيل :

هذا زوجى قد حضر ، فتحدثى إليه بما شئت .

أخذت راحيل تساومنى ، ورأيت أنها ترفع ثمنها من عشرين ديناراً ، إلى خمسين ديناراً ثم إلى مائة دينار ، وتذكرت قول سعد لى :

إن قطعة الرصاص فيها خير كثير .

فأدركت أن هذه القطعة ليست زجاجاً ، ولكنها شىء آخر أغلى من الزجاج ، وخطر ببالى أنها قد تكون قطعة من الماس ، فقلت لراحيل :

لن أبيعها إلا بمائة ألف دينار ، فأريحى نفسك ، وأريحينى من عناء المساومة .

وقد قدرت هذا الثمن يا مولاى جزافاً ، وهو فى نفسى كثيراً جداً لا تبلغه قيمة القطعة ، ولهذا كانت دهشتى عظيمة حين قبلت راحيل الثمن الذى اقترحته ، وقالت :

إنى ذاهبة إلى زوجى لأبعثه إليك ، فيدفع إليك الثمن و يأخذ القطعة ، ورجائى أن تحافظ عليها حتى يأتيك زوجى .

ذهبت راحيل إلى زوجها وأخبرته بما حصل ، فجاءنى اليهودى وقال لى :

أيها الجار العزيز ! هل تسمح لى أن أرى قطعة الزجاج التى عندك . والتى كانت راحيل زوجتى تشتريها منك ؟

فقلت له :

تفضل على الرحب والسعة .

وأدخلته معى البيت ، وأجلسته ، ثم أحضرتها له ، فقلبها فى يديه ثم قال :

إن زوجتى قليلة الخبرة ، وقد رفعت ثمنها كما أخبرتنى إلى مائة ألف دينار ، ولكن هذا الثمن لن تبلغه ، ولا تبلغ فيما أعتقد أكثر من خمسين ألف دينار .

فقلت لليهودى :

قد عرفتَ ما قلتهُ لزوجك ، فإن اشتريتها بمائة ألف دينار فإنى لا أنقض قولاً قلته ، وإن أبيت وأعرضت أعطيتنى الحق فى ألا أستمسك بقولى ، وفتحت أمامى سبل الخير لى ، وسترى أنى سأبيعها بأكثر من مائة ألف دينار .

فأمسكها اليهودى مرة ثانية ، وجعل يقلبها ، ويحدث نفسه ، كأنه عثر فيها على أشياء لم يعثر عليها من قبل ليمهد لنفسه السبيل إلى شرائها بما اقترحته من الثمن جزافاً ! وبعد مدة قضاها فى الفحص والبحث رفع رأسه ، ونظر إلى قائلا :

لا مانع لدى أن أشتريها بمائة ألف ، فخذ عشرين ألفاً ، على أن تبقى عندك حتى آتيك غداً ، وأنقدك بقية الثمن وآخذها .

فأخذت منه العشرين ألفا ، وانتظرته فى الغد ، فجاءنى ودفع بقية الثمن وأخذها وانصرف .

أصبحت يامولاى بهذا المبلغ من كبار الأغنياء المعدودين ، ووددت لو أنى أعرف بيت سعد فأذهب إليه فيه ، وأشكره شكراً جزيلا ، إذ كان السبب فى غنائى وسعادتى ، ورجوت من الله أن ألقاه ، فأقدم إليه الشكر الذى يستحقه .

* * *

فرحت زوجتى فرحاً عظيما وقالت : لقد جزانا الله بما صبرنا ورضينا هذه الألوف المؤلفة من الدنانير ، فقم الآن وهات لى ما يليق بهذه الثروة العظيمة من الملابس والحلى والجوارى والخدم لأستمتع كما تستمتع زوجات الأغنياء ، ولأريح نفسى من عناء العمل والخدمة فى المنزل .

فقلت لها :

الآن قد بان لك أنى كنت حازماً فى أنى أخفيت عنك أمر الدنانير

الأولى ، فقد خشيت عليها أن تدفعينى إلى إنفاقها فيما تطلبين منى الآن .

قالت زوجتى

وماذا تعمل بهذا المال إذا لم يعد علينا نفعه ، ولم نستمتع به ؟ !

قلت :

إن الكحل لا يؤخذ منه إلا بمقدار ما يعلق بالمرود ، وهو مع ذلك سريع النفاد ؛ فاصبرى قليلا حتى أدبر أمرى ، وأضع هذه الدنانير فى الصناعة والتجارة لتزيد وتنمو ، ثم نستمتع مما تدره علينا من الأرباح خير متعة ، وبذلك يدوم لنا الغنى وتدوم النعمة .

قالت :

أنت أكبر منى عقلا ، وأكثر تجربة وحزماً ، فافعل ما شئت ، ما دام هذا رأيك ، حتى لا نسعى إلى الفقر بأقدامنا .

خرجت يا مولاى إلى من أعرفهم من الحبالين فى بغداد ، وعرضت عليهم أن أمدهم برءوس الأموال ، على أن يكون لى نصف الأرباح ففرحوا ورضوا .

انتعشت صناعة الأحبال ، وراجت تجارتها ، وأصبحت القيم عليها ، والقابض على زمامها ، وأمطرت على أرباحاً كثيرة ؛ فاشتريت الضياع والبساتين ، فكانت هذه منبع ثروة ومال غزير ، فبنيت هذا القصر ، وجملته وزينته ، وملأته بالأثاث الفاخر والفرش القيمة ، وبالخدم والجوارى ، وسكنت فيه أنا وزوجتى وأولادى ، وأصبحنا فى

حال غير الحال .

وبعد سنة من أخذى قطعة الرصاص حضر سعيد وسعد إلى دكانى فلم يجدوه ولم يجدونى ، فسألا عنى فقيل لهم :

إنه الآن من كبار الأغنياء والقيم على صناعة الأحبال وتجارتها ، وصاحب رءوس أموالها ، وقصره العظيم فى شارع « كذا » من المدينة .

فأسرعا إلى القصر حتى كانا أمامه ، وسألا عنى بوابه ، فقال لهما :

تفضلا . . . .

وبعث إلى خادماً يخبرنى أن رجلين بالباب يستأذنان فى الدخول ، فأذنت لهما ، وكنت إذ ذاك جالساً فى البهو الكبير من القصر ، فأبصرتهما قادمين وعرفتهما ، فأسرعت إليهما واستقبلتهما بالحفاوة والإكرام ، وأجلستهما فى غرفة الاستقبال الفاخرة ، وجعلت أشكرهما ، وأعلن لهما أن هذا الغنى الذى أنا فيه من فيض معروفهما وإحسانهما ، وحكيت لهما قصة قطعة الرصاص من أولها إلى آخرها ، فابتهج سعد وانشرح صدره ، وأشرق بالسرور وجهه ، وقال :

هذا ما كنت أتوقعه .

أما سعيد فإنه اهتز وقال :

أحب ألا أكتم شيئاً فى صدرى ، أن أبدى لكما ما فى نفسى . يخيل إلى أن حسنا الحبال ماهر فى الاحتيال والخديعة ، وأنه ذو قدرة

على ابتكار القصص الخيالية الساحرة ، وما أظن ثروته هذه إلا من دنانيرى التى أخفاها ، وصرف أنظارنا عنها بما ابتكره من قصصه الخيالية التى لا حقيقة لها .

فقلت لهما :

ما قلت لكما إلا الحق ، والله على ما أقول شهيد ، ولعل الأيام تبدى لنا ما يؤيد صدقى ، ويبرئنى من الخديعة والكذب .

وكان الخدم قد أعدوا طعام العشاء ، فقمنا إلى المائدة ، وأكلنا من شهى الطعام وصنوفه ما هنئت به نفوسنا ، ثم استأذنا فى الرواح ، فأقسمت عليهما أن يبيتا ويقضيا نهار الغد فى ضيافتى .

بتنا تلك الليلة ، وفى الصباح أكلنا ، ثم مضيت بهما إلى بستان القصر ، وكان فسيحاً ممدوداً ، به أشجار معمرة كبيرة ، وفواكه مختلفة ، وأزهار يانعة ، وبسط نباتية خضراء فسيحة ، وطرق مستقيمة ومستديرة ومتقاطعة فى تناسق يثير العجب والغبطة ، فجلسنا على مناضد جميلة أعدت للجلوس فيه .

* * *

وبينما نحن جلوس إذ جاءنا البستانى ، واستأذننى أن يهدم عش حدأة فى شجرة كبيرة كانت أمامنا وعلى مرأى منا ، ويطردها من البستان ؛ لأنها تهجم على أفراخ نوع من الحمام فتأكلها ، فأمرته أن يهدمه فى الحال ، ويطرد الحدأة التى تزعج الطيور كما أزعجتنى حين خطفت عمامتى .

ذهب البستانى وتسلق الشجرة ، وأنزل عشها ، وقد أدهشه أنه وجد عمامة ، فجاءنا بها ، ووضعها أمامنا وقال :

وجدت فى عش الحدأة عمامة ، فأحضرتها ، وها هى ذى بين أيديكم .

نظرت إلى العمامة يا مولاى فبان لى أنها عمامتى ، فأمرت البستانى أن يفك طياتها لنرى ما فيها ، ورجوت الله أن أكون صادقاً فى ظنى ، وأن نجد الدنانير لا تزال باقية فيها .

فك البستانى العمامة وكانت دهشتنا عظيمة حين رأينا الكيس وأخرجنا منه الدنانير ، وكان فرحى عظيما حين عددناها فوجدناها مائة وتسعين ديناراً ، فقال سعد لصاحبه :

لقد أيد الله صدق حسن الحبال من حيث لا نحتسب .

فقال سعيد :

ألا لله الأمر من قبل ومن بعد ، آمنت بالله ، وآمنت بقضائه وقدره .

حضرت القهوة التى كان قد طلبها حسن الحبال ، وبينما هم يشربونها لمح حسن أحد الخدم سائرا يحمل جرة ، تشبه جرته التى وضع فيها الدنانير ، واشترت بها زوجته الليف ، فناداه ، فحضر فسأله :

من أين لك هذه الجرة ؟ وماذا تصنع بها ؟

فقال :



البستانى يفك العمامة التى عثر عليها فى عش الحدأة

ذهبت إلى تاجر النخالة لأشترى نخالة لجوادك . فباعنى هذه الجرة بما فيها من النخالة بكذا من الدراهم . . فظننت يا مولاى أنها جرتى . وأمرته أن يحضر وعاء كبيراً ليفرغ ما فى الجرة من النخالة ، لأتبين مقدار جودتها ، وأخفيت عن صاحبى فى نفسى غرضى من هذا العمل ، وهو البحث عن الدنانير ، ورجوت من الله أن أجدها .

أحضر الخادم الوعاء . وأفرغ الجرة فيه . وكانت دهشتنا عظيمة حين وجدنا كيس الدنانير كما هو ، وكانت فرحتى عظيمة حين عددناها فألفيناها مائة وتسعين ديناراً . فنهض سعيد واقفاً وقال :

الله أكبر ! لله الأمر من قبل ومن بعد ! آمنت بالله ! وآمنت بقضائه وقدره ! المرء فى تفكير، والرب فى تدبير . ألا إلى الله تصير الأمور . . .

صدقت يا حسن ، وهنئت بما أعطيت .

وهذه قصتى يا مولاى .

قال الرشيد :

صدقت ، ولك عندى ما يؤيد صدقك .

ثم أمر أن يأتوه بسعد وسعيد ، فحضرا فى الحال .

وأمر أن يأتوه بقطعة الماس التى عند زوجته ، فأتوه بها فأمسكها بيده وقال :

يا سعيد ! هذه قطعة الماس ، باعنيها اليهودى الذى حدثك عنه

حسن الحبال ، فهل صدقته ؟

قال سعيد :

صدقت وآمنت يا أمير المؤمنين .

ثم قال للرجال الثلاثة :

ليس عليكم جناح فيما قصصتم ، وأمر الجميع بالانصراف ، فانصرفوا ومضى كل إلى سبيله .

ألف ليلة وليلة

هذه طبعة جديدة من هذه المجموعة التى تنتمى إلى التراث الشعبى.. والتى نالت إهتمامًا عالميًا فى الشرق والغرب.. وترجمت إلى كل لغات العالم..

وتمتاز هذه الطبعة بحسن الصياغة التى تناسب عقول الشباب والناشئة.. وتخلو من الشوائب التى توجد فى طبعات كثيرة..

إنها واحدة من عيون التراث الذى تحرص دار المعارف على تقديمه إلى القارئ العزيز..

صدر منها:

١ - شهر زاد ودنيا زاد
٢ - السندباد البحرى
٣ - قمر الزمان
٤ - الصياد والعفريت
٥ - معروف الإسكافى
٦ - الأحدب والخياط
٧ - عبدالله البرى وعبدالله البحرى
٨ - أبوالحسن وجاريته تودد
٩ - الحصان المسحور
١٠ - على بن بكار وشمس النهار
١١ - على الزئبق ودليلة المحتالة
١٢ - علاء الدين والمصباح العجيب
١٣ - على بابا



دار المعارف